أضواء على سنوات يسوع الخفيّة

الأب ميلاد الجاويش

تمهيد

أُورد، بدايةً، بعض النقاط التي أعتبرها أساسيّة ولا بدّ من ذكرها:

أوّلاً، لماذا الكلام على سنوات يسوع الخفيّة في هذا المؤتمر؟ في الواقع، طالما أحيط موضوع السنوات التي قضاها يسوع في الخفية بكثير من الأسئلة وعلامات الاستفهام، ليس فقط من قِبَل العلماء والبحّاثة، بل حتّى من المؤمنين العاديّين: ماذا فعل يسوع خلال هذه السنوات الثلاثين التي عاشها في الناصرة؟ كيف تربّى في البيت طفلاً وولدًا ومراهقًا وشابًّا بالغًا؟ كيف تعامل مع محيطه العائليّ والقرويّ والوطنيّ؟ هل كان يعي هويّته، الفريدة في طبيعتها؟ هل صنع عجائب أثناء تلك الفترة؟ هل سافر إلى خارج حدود فلسطين؟ أين تلقّى علومه؟... إلى ما هنالك من الأسئلة التي تُطرح عادةً حول الشخصيّات الكبيرة التي تركت بصمات دامغة في تاريخ البشريّة.

على هذه الأسئلة وغيرها رُدَّ بعديد من الأجوبة، منها ما كان أسطوريًّا وخياليًّا خاليًا من أيّة قيمة تاريخيّة، ومنها ما كان جدّيًّا يستحقّ الاهتمام، ومنها ما أعوزته الدقّة العلميّة. ولم تنحصر هذه الأجوبة في الزمن الحديث، لا بل يعود تاريخ البعض منها إلى بدايات المسيحيّة. وما الأناجيل المنحولة، وبالتحديد تلك التي تتكلّم على سنوات يسوع الأولى، إلاّ واحدة من المحاولات التي قامت لتروي ظمأ المسيحيّين إلى معرفة ما جرى خلال تلك السنوات المظلمة، ولتشبع

"حشريّة" بعض الراغبين في الاطّلاع على التفاصيل اليوميّة لطفولة يسوع في الناصرة(١).

ومن النظريّات التي تداولها الناس حديثًا، تلك التي تزعم أنّ يسوع سافر إلى الهند ليتلقّى علومه على أيدي رهبان بوذيّين، وهذا ما يؤكّده، حسب زعمهم، التقارب في الأفكار والمفاهيم بين البوذيّة والمسيحيّة؛ وهناك آخرون أيضًا يؤكّدون زيارة يسوع لمصر أو لفينيقيا، وإقامته فيهما مدّة من الزمن؛ وغيرهم أدخل يسوع إلى أديرة جماعة الأسينيّين على ضفاف البحر الميّت؛ وآخرون جعلوا منه فيلسوفًا اطّلع على الفلسفات الهلّينيّة المعروفة في زمانه، فاستقى منها جزءًا من تعاليمه؛ وهناك أيضًا عدد غير قليل من المفكّرين الذين لم يروا في يسوع إلاّ وجهه اليهوديّ، فألبسوه قلنسوة الحاخاميّين، أو جعلوا منه مجرّد حكيمٍ يهوديّ يدعو الناس إلى سلوك طريق أخلاقيّ قويم...

ثانيًا، ما هي المراجع التي يمكن الركون إليها في هكذا بحث؟ نحن نعلم أنّ الأناجيل سكتت عن هذه السنوات الخفيّة، ولم تورد عنها إلاّ خبرًا يتيمًا كتبه لوقا عن زيارة يسوع وأبويه لأورشليم لمّا كان في الثانية عشرة من عمره. بالرغم من هذا الصمت المقصود، تبقى **الأناجيلُ القانونيّةُ** المصدرَ الأساسيَّ الذي يستقي منه المؤرّخ معلومات تاريخيّة. غير أنّ استعمال الأناجيل، في هذا المضمار، ليس سهلاً كما يبدو للوهلة الأولى. فهي، وإن كان فيها شيء من التاريخ، ترسم عن

(١) ابتداءً من القرن الماضي، نشطت ظاهرة أدبيّة عُرفت بـ"أدب السيرة". فظهرت مئات السير التي تتناول حياة يسوع. من هذه السير ما اعتمد العِلم فكان جديًّا، ومنها ما اعتمد الخيال فلا قيمة تاريخيّة له. أبرز هذه السير ما كتبه المستشرق أرنست رينان والعلاّمة الأب لاغرانج، وبول غوتيه، ورينيه لورنتان، وجيرد تيسين وغيرهم. وفي أثناء إعدادي هذه المحاضرة، لم أقع إلاّ على كتاب واحد يتناول بكلّيّته سنوات يسوع الخفيّة، وهو لكاتب فرنسيّ، يهوديّ الأصل:
R. ARON, *Les années obscures de Jésus*, Desclée de Brouwer, Paris 1995². أمّا باقي الكتب التي طالعتها، فتطرّقت إلى موضوع السنوات الخفيّة ضمن جملة مواضيعها، وكنقطة بين النقاط التي تعالجها. وقد تناولت في أغلبيّتها المحيط الجغرافيّ والثقافيّ والدينيّ الذي نشأ فيه يسوع، مع التركيز قليلاً على عائلة يسوع، وبالتحديد على قضيّة "إخوته" و"أخواته"، المذكورين في الإنجيل، وعلى مدى قرابتهم ليسوع.

يسوع صورة لاهوتيّة كوّنتها عنه الكنيسة الأولى. فيسوع "الإنجيليّ" هو يسوع كما بدا لعيون الكنيسة الأولى. من هنا، يلجأ البحّاثة إلى الاستنتاج واستنباط الفرضيّات التي، بالرغم من بقائها مجرّد نظريّات، تحوي على قدر لا بأس به من الواقعيّة التاريخيّة والقيمة العلميّة.

بالمقابل، لا يمكن للمؤرّخ أن يثق **بالأناجيل المنحولة** المتخصّصة بطفولة يسوع وبفتوّته، حتّى لو كان بعضها قديم العهد. نقصد بالتحديد "إنجيل توما الإسرائيليّ" (من القرن الثاني)، و"إنجيل الطفولة العربيّ" (من القرن السادس)، و"إنجيل الطفولة" (أيضًا من القرن السادس). السبب في عدم الثقة هذا بسيط جدًّا: إنّ ما ترويه هذه الأناجيل من أخبار هو من نسج الخيال والأسطورة، ولم يُكتب إلاّ لإشباع رغبة المؤمنين في معرفة تفاصيل نافلة عن مرحلة من حياة يسوع صمتت عنها الأناجيل القانونيّة(٢).

مصدرٌ تاريخيّ آخر يلجأ إليه البحّاثة هو المؤرّخ اليهوديّ **فلافيوس يوسيفوس**. لقد أولى علمُ التاريخ حديثًا الكثير من الأهمّيّة لمؤلّفات هذا المؤرّخ اليهوديّ، الذي عاصر الحقبة التي تلت موت يسوع في القرن الأوّل. أمّا في نطاق بحثنا، فيفيدنا يوسيفوس في الإضاءة على الجوّ السياسيّ والثقافيّ والدينيّ الذي ساد في بداية العهد المسيحيّ.

ثالثًا، لا بدّ هنا من التذكير بنقطة مهمّة، غالبًا ما يتوقّف البحّاثة عندها: وهي محدوديّة البحث التاريخيّ عن أيّة شخصيّة تنتمي إلى الماضي، فكيف إذا كانت

---

(٢) أغلب ما ترويه هذه الأناجيل المنحولة هو معجزات وخوارق فائقة الطبيعة صنعها الطفل يسوع مع فئات متعدّدة من المجتمع: مع أطفال من عمره، مع معلّمين وكتبة، مع حطّابين وفلاّحين، ومع نجّارين وبنّائين... بعض القصص مستوحى من الأناجيل الرسميّة، كتلك التي يُدهش يسوع فيها معلّميه ويحمّقهم بعلمه، ويُظهر أنّهم هم التلاميذ المحتاجون إلى التعلّم لا هو. لكنّ معظم القصص لا يمتّ إلى الأناجيل القانونيّة بصلة، بل، على العكس، يغلب عليه الطابع الغريب والمستهجن. يصوّر بعضها يسوع، مثلاً، كساحر يخلق الطيور من الطين، أو كصانع خوارق يسيطر على قوى الطبيعة، وكشافٍ للمرضى ومقيم للأموات، أو كولد شقيّ يلعن رفاقه، بل يميتهم، إن هم ضربوه أو عارضوه، أو كابن عاصٍ يُغضب أباه يوسف لكثرة ما أحرجه أمام أعين أهل القرية...

هذه الشخصيّة، وباعتراف الجميع، فريدة في غناها واستثنائيّة جدًّا كشخصيّة يسوع! لهذا يميّز العلماء، عادةً، بين يسوع "**الواقعيّ**" (réel) ويسوع "**التاريخيّ**" (historique)[٣]. يسوع "الواقعيّ"، أي يسوع كما وُجد وكما كان منذ ألفي سنة ونيّف، يصعب على أيّ مؤرّخ أن يحدّد بالضبط هويّته وأقواله وأفعاله. فالمؤرّخ لا يعرف عنه إلاّ ما تقدّمه له المصادر التاريخيّة، المكتوبة منها والأثريّة. أمّا يسوع "التاريخيّ" فيعني، في هذه الحالة، ذلك الشخص الذي استطاع المؤرّخ اكتشافه من يسوع "الواقعيّ".

هذا التمييز بين "اليسوعَين" ينطبق جيّدًا على موضوعنا، لأنّه لا أحد منّا يستطيع أن يعلم بالضبط ماذا حدث مع يسوع، مدّة تلك السنين الطويلة التي قضاها في الناصرة. جلّ ما نقدر أن نفعله هو الاستنتاج، لكن الاستنتاج الموثّق بالبراهين والحجج الأقرب إلى الواقع. يقول شلوسّر في هذا المجال: "علينا أن نخاطر ونقوم بالاستنتاجات النظريّة، حتّى إنّه يجب علينا اللجوء إلى المخيّلة، ولكن دائمًا باعتدال"[٤].

رابعًا، يجرّنا هذا إلى السؤال التالي: لماذا أعرض الإنجيليّون عن تدوين أخبار طفولة يسوع، أسوة بباقي فترات حياته الأخرى، وعن تغطية أحداث فترة نموّه في الناصرة؟ لماذا هذا الصمت حول هذا الموضوع؟

نلفت الانتباه أوّلا إلى أنّ يسوع لم يكن الشخصيّة البيبليّة الأولى والوحيدة التي أصابها هذا الصمت؛ فهناك، مثلاً، موسى، نبيّ العهد القديم، الذي نجد في سيرة حياته قفزة في الزمن من خبر ولادته في بيت عبرانيّ، وتبنّيه من قِبل بنت فرعون، إلى الفترة التي سبقت رسالته واعتلانه لإسرائيل (راجع خر ٢: ١—١٠، ١١—٢٢). هذا الفراغ الكتابيّ، حاول لاحقًا **فيلون الإسكندريّ ويوسيفوس**

---

(٣) أنقل هنا تفكير جاك شلوسّر، راجع:

J. SCHLOSSER, *Jésus de Nazareth*, Noesis, Paris 1999, p. 21-22.

(٤) J. SCHLOSSER, *Jésus de Nazareth*, p. 23.

المؤرّخ أن يملأه، فكتبَا سيرة موسى وهو شابّ، وبيَّنا تفوّقه الفكريّ وحكمته على معلّميه المصريّين(٥).

أمّا في الأدب المصريّ واليونانيّ والرومانيّ، فإنّ "روايات الصبا" كانت معروفة ومنتشرة على نطاق واسع. وكانت تهدف إلى إلقاء الضوء على فترة صبا أحدِ الأبطال المشهورين، وتبيان مدى تفوّقه وذكائه حتّى منذ فتوّته. كانت هذه الروايات تُكتب مع نظرة استعاديّة (rétrospective)، أي أنّ المؤرّخ، الذي يعرف بطله ويفتخر به، يرجع في الزمن إلى الوراء، وينكبّ على كتابة سيرة هذا البطل من مولده، مرورًا بطفولته وفتوّته إلى اليوم الذي أظهر فيه بطولاته. من بين المشاهير القدماء الذين كُتبت روايات صباهم، نذكر: قورش، هوميروس، أبيقور، الإسكندر الكبير، شيشرون، أغسطس قيصر...

أمّا في ما يختصّ بيسوع، فحاول لوقا أن يطبّق هذا النوع الأدبيّ عليه، لمّا روى زيارة الحجّ إلى أورشليم (لو ٢: ٤١-٥١). وحاول أيضًا أن يبيّن علامات التفوّق والنضوج المبكّر في شخصيّة يسوع منذ صباه، هذه العلامات المميّزة التي تخوّله أن يقوم لاحقًا برسالته أحسن قيام. إذا قمنا هنا بمقارنة صغيرة بين خبر لوقا وسيرة موسى، كما رواها فيلون ويوسيفوس، تظهر لنا أوجه شَبَهٍ كثيرة بين الشخصيّتين، إذ هناك نقاط ثابتة تتكرّر عند الاثنين(٦):

أ- موسى الفتى يوجد وسط معلّمين بالغين (= لو ٢: ٤٦أ)

ب- لكنّه يتفوّق عليهم بحكمته ومعرفته الواسعة (= آ ٤٦ب)

ج- ويترك عند سامعيه انطباع الاندهاش والإعجاب (= آ ٤٧)

د- يبرهن الفتى، عبر كلمة يتفوّه بها أو عبر عمل يقوم به، أنّه يملك بالفطرة

(٥) راجع: فيلون الإسكندريّ، سيرة موسى، I، ٢٠-٢٧؛ فلافيوس يوسيفوس، العاديّات اليهوديّة، II، ٢٢٨.

(٦) هذه المقارنة نقلاً عن: O. MAINVILLE, "L'enfance de Jésus et le monde des récits de jeunesse", in M. QUESNEL - P. GRUSON, *La Bible et sa culture. Jésus et le Nouveau Testament*, Desclée de Brouwer, Paris 2002, p. 71-74.

المؤهّلات الأساسيّة التي تخوّله أن يقوم لاحقًا بالرسالة التي يوكلها الله إليه، كقوله، مثلاً، إنّ "الله هو أبوه" (= آ ٤٩).

لا شكّ في أنّ لوقا أراد، ليس فقط من خلال خبر زيارة هيكل أورشليم بل أيضًا من خلال صمته عن فترة الصبا عند يسوع، أن يقابل يسوع بموسى، ويقدّمه للكنيسة موسى جديدًا يحمل الخلاص الجديد. في ذلك إذًا غاية لاهوتيّة ذات شأن.

نعود إلى سؤالنا الذي طرحناه في البداية عن سبب صمت الأناجيل عن فترة الصبا عند يسوع. إنّ السبب بسيط جدًّا، لأنّه في الوقت الذي أخذ فيه الإنجيليّون يُسَطّرونَ حياةَ يسوع، لم يكن يوجد، تقريبًا، أيّة معلومة عن سنوات يسوع الثلاثين الأولى من حياته. أصدقاؤه وتلاميذه الأقربون لم يعرفوه إلاّ عندما ظهر علانيّة لإسرائيل وبدأ عمله التبشيريّ[٧]. زد على ذلك، عدم اكتراث التقليد الرسوليّ القديم للأخبار التي تتخطّى حدود "بداية بشارة يسوع" (مر ١: ١)، حين ظهر على ضفاف نهر الأردنّ وتعمّد على يد يوحنّا المعمدان. وما إنجيل مرقس، الذي هو النموذج الإنجيليّ الأوّل، إلاّ برهان ساطع على اهتمام الكنيسة الأولى[٨]. وحده يسوع المسيح الحيّ والقائم من الموت اهتمّ له التقليد الكنسيّ ولاحق أخباره. هذا ما عبّر عنه يومًا سكيلوبكس عندما قال: إنّ الإنجيل يروي "تاريخ إنسان حيّ"[٩].

خامسًا، لنختم التمهيد بتحديد مفهوم "السنوات الخفيّة"[١٠]. تُسمّى "السنوات الخفيّة" تلك الأعوام التي قضاها يسوع مع عائلته في الناصرة قبل اعتلان أمره

---

(٧) راجع: D. SPOTO, *Un inconnu nommé Jésus*, Le pré aux clercs (pour la traduction française), 2000, p. 88.

(٨) راجع أيضًا الشرط الذي وضعه بطرس الرسول في أعمال الرسل، لمّا قرّرت الجماعة اختيار خلفٍ ليهوذا الإسخريوطيّ: "هناك رجال صحبونا طوال المدّة التي أقام فيها الربّ يسوع معنا، مذ أن عمّد يوحنّا إلى يوم رُفع عنّا" (أع ١: ٢١-٢٢).

(٩) نقلاً عن كتاب: J. SCHLOSSER, *Jésus de Nazareth*, p. 23

(١٠) نقلاً عن: W. TRILLING, *Jésus devant l'histoire*, Lire la Bible 15, Cerf, Paris ²1968, p. 92.

لإسرائيل والبدء برسالته التبشيريّة، أي قبل أن يصبح يسوع شخصيّةً عامّة، يعرفه الناس ويتباحثون حول هويّته وعمله. تمتدّ هذه الفترة من يوم ميلاده إلى ما قبل عماده على يد يوحنّا المعمدان على ضفاف نهر الأردنّ.

من المتّفق عليه بين العلماء أنّ يسوع وُلد تحت حكم هيرودس الكبير بين سنتي ٤ و ٦ ق.م.، باعتبار أنّ هذا الأخير توفّي سنة ٤ ق.م.، أمّا تحديد تاريخ بداية عمل يسوع التبشيريّ فليس بالأمر السهل. ينقل لنا لوقا أنّ يسوع بدأ نشاطه في السنة الخامسة عشر لطيباريوس (لو ٣:١). ولمّا كان أغسطس قيصر، سلف طيباريوس، قد مات في ١٩ آب من سنة ١٤ ب.م.، تكون إذًا السنة الخامسة عشر لحكم خلفه تمتدّ من ١٩ آب سنة ٢٨ إلى ١٨ آب سنة ٢٩. لكن هناك حساب زمنيّ آخر كان معمولاً به في الشرق، وخصوصًا من قِبل المؤرّخين اليهود، **وهو التقويم السوريّ**، الذي يحسب أنّ السنة الثانية لحكم طيباريوس تبدأ مع السنة الجديدة في ١ تشرين الأوّل ١٤، باعتبار أنّ السنة الأولى تمتدّ من ١٩ آب حتّى ٣٠ أيلول من سنة ١٤، ولا تحوي إلاّ بضعة أشهر. هكذا يكون يسوع، بحسب هذه النظريّة الأخيرة، قد بدأ تبشيره في تاريخ بين **١ تشرين الأوّل ٢٧ و ٣٠ أيلول ٢٨**. يميل معظم العلماء اليوم إلى تبنّي النظريّة الثانية، لأنّها هي التي كان يُعمل بها في الشرق، ومن الأرجح أن يكون لوقا قد تبنّى حسابها، لا ذلك المعمول به في الغرب.

ولمّا كان لوقا ومتّى قد دوّنا كيف ومتى وأين وُلد يسوع، ولم تعد بالتالي هذه الفترة "مخفيّة" على أحد، فنستطيع إذًا أن نعتبر هذه الأحداث خارجَ مجالِ بحثنا، علاوةً على أنّها تشكّل بذاتها موضوع دراسة على حدة.

القسم الأوّل: الوطن "... مدينة في الجليل اسمها الناصرة" (لو ١:٢٦)

١- الناصرة: "هو يسوع ابن يوسف من الناصرة" (يو ١:٤٥)

إذا كان العلماء يختلفون اليوم على تحديد مكان ولادة يسوع، إن كان في

بيت لحم (كما يذكر متّى ولوقا) أم في الناصرة (كما يوحي بذلك مرقس ويوحنّا)، فإنّ معظمهم يتّفق على أنّ يسوع ترعرع وتربّى في الناصرة، القرية المغمورة في الجليل التي تبعد نحو ساعة سير على الأقدام من سيفوريس وطبريّا، كبرى مدن الجليل المنخفض آنذاك. في الواقع، لم تكن الناصرة بلدة معروفة وذات شأن. لا نجد لها أيّ ذكر في الكتابات التي تسبق الأناجيل، ولم يذكرها لا يوسيفوس ولا المشنا ولا التلمود. القرية القديمة كانت تقع شرقيّ المدينة الحاليّة. وبيوتها كانت عبارة عن مغاور منتشرة في الجبل، اكتُشفت حديثًا بفضل علم الآثار، كانت تصلح للسكن أو لتخزين الطعام أو كمأوى للمواشي. لم يتمّ العثور على بقايا بيوت سكنيّة، ربّما لأنّها كانت تُبنى بمواد خفيفة، كالطين والتبن، التي لا تستطيع أن تقاوم العوامل الطبيعيّة على مرّ السنين. إن دلّ هذا على شيء فعلى طابع الناصرة الفقير. لا شكّ في أنّ عائلة يسوع كانت تسكن في أحد تلك البيوت المتواضعة.

كانت الزراعة النشاط الاقتصاديّ الأبرز في الجليل، وذلك لخصوبة أرضه ولوفرة المياه فيه، بالمقارنة مع المنطقة الجنوبيّة. يمدح يوسيفوس خصوبة الجليل ويقول فيها إنّها كانت تجبر حتّى الأكثر كسلاً على أن يزاول عملاً زراعيًّا ما، بحيث إنّه لم يبقَ في الجليل أيّة بقعة جرداء(١١).

لا ننسى طبعًا تربية المواشي التي تتطلّب نوعًا من الخصب في الأرض، ولا مهنًا أخرى كصيد السمك وبيعه، خصوصًا على ضفاف بحيرة طبريّا.

٢- سكّان الجليل ولغتهم: "... وقام ليقرأ" (لو ٤: ١٦)

كان الجليل، وبالرغم من الأكثريّة الديموغرافيّة اليهوديّة، محاطًا بمدن يكثر فيها الوثنيّون، ويغلب عليها الطابع الثقافيّ الهلّينيّ: المدن العشر من الشرق (ذيكابوليس)، ومدن ولاية فيليبّس من الشمال (طراخونيطس، قيصريّة فيليبّس)، المدن البحريّة على المتوسّط (قيصريّة، بطُلِمايس، صور...). وبما أنّ الجليل

(١١) فلافيوس يوسيفوس، الحرب اليهوديّة، III، ٤٢-٤٣.

المنخفض لم يكن بمعزل عن هذه المدن الهلّينيّة بل على تواصل دائم معها، سواء بفضل موقعه الجغرافيّ وطرق المواصلات المتشعّبة آنذاك، أو بحكم العلاقات التجاريّة المزدهرة، تسرّبت الثقافة الهلّينيّة إلى مدنه وقراه المنتشرة هنا وهناك.

يجرّنا هذا العرض إلى طرح مسألة اللغة التي كان يحكيها أهل الجليل، ويسوع واحد منهم. بنحوٍ آخر، هل كان يسوع يقرأ العبريّة، لغة التدوين آنذاك، ويتكلّم اليونانيّة، بالإضافة إلى اللغة الآراميّة التي كان يحكيها يهود ذلك الزمن؟

ليس هناك أدنى شكّ في أنّ يسوع كان يتكلّم الآراميّة، شأنه شأن يهود فلسطين(١٢). ومن المؤكّد أيضًا أنّه كان يتقن اللغة العبريّة، لغة أجداده، التي بها كان يقرأ الكتب المقدّسة (راجع لو ٤:١٦–١٨). لكن هل كان يُلمّ باليونانيّة؟ بالعموم، كانت الطبقة الحاكمة في ذلك العصر أكثر الناس انفتاحًا على الثقافة الهلّينيّة، وكانوا، بالتالي، يتقنون التكلّم باللغة اليونانيّة، بحكم تعاملهم المتواصل مع الخارج. ولكن هل وصل هذا التأثير إلى الطبقات الشعبيّة؟ هذا ممكن، والدليل على هذا اكتشاف الحفريّات الأثريّة عددًا لا بأس به من النواويس والقبور التي نُقشت عليها كتابات باللغة اليونانيّة.

بالمقابل، هناك براهين أخرى تبيّن ضعف انتشار اليونانيّة في المدن الريفيّة، لاسيّما في القرى التي كانت محض يهوديّة(١٣). في التلمود، مثلاً، نجد نصًّا يمنع على اليهوديّ أن يتكلّم اليونانيّة، ومَن يعصى هذا النهي فليعتبر نفسه منفصلاً عن بيت إسرائيل. من هنا، نستبعد أن يتحدّث يسوع بلسان يونانيّ طليق، من غير أن ننفي فرضيّة إلمامه، بعض الشيء، ببعض التعابير اليونانيّة، خصوصًا تلك التي تسلّلت إلى الآراميّة، كما يحصل عادةً بين اللغات المختلفة(١٤).

---

(١٢) أبقت لنا الأناجيل على بعض التعابير باللغة الأصليّة كما قالها يسوع بالذات، مثلاً: "طليثا قوم" (مر ٥:٤١).

(١٣) ينقل لنا المؤرّخ الكنسيّ أوسابيوس، من القرن الثالث، أنّ المسيحيّين الجليليّين المحيطين بمدينة سقيثوبوليس كانوا يحتاجون إلى مترجم ينقل لهم إلى الآراميّة العظة التي كانت تُلقى باليونانيّة. نقلاً عن:
G. VERMES, *Enquête sur l'identité de Jésus. Nouvelles interprétations*, Bayard, Paris 2003, p. 227-228.

(١٤) أنقل هنا استنتاج شلوسّر في: J. SCHLOSSER, *Jésus de Nazareth*, p. 50-51 ; وفرميس في:
G. VERMES, *Enquête*..., p. 227-228.

٣– الوضع السياسيّ: " في السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيباريوس... وهيرودس أمير الربع على الجليل" (لو ٣: ١)

كيف كان الوضع السياسيّ الذي عاصره يسوع طوال سِنِيهِ في الناصرة؟ إذا كان يسوع قد وُلد تحت حكم هيرودس الكبير، غير أنّه عاش أعوامه الخفيّة، كما سِنِيّ حياته العلنيّة، تحت حكم هيرودس أنتيباس، ابن هيرودس الكبير، الذي تسلّم الحكم عقب وفاة والده من سنة ٤ ق.م. حتّى سنة ٣٩ ب.م. دعاه لوقا "أمير الربع" (لو ٣: ١)، لأنّه، بعد موت هيرودس الأب، تقاسم أبناؤه الثلاثة مملكته، فكان الجليل وبيرية من نصيب أنتيباس، وأدومية واليهوديّة حصّة أرخيلاوس، والجليل الأعلى ميراث فيليبّس.

كان النظام السياسيّ أيّام أنتيباس شبيهًا بالذي كان في عهد أبيه: **حكم ذاتي مع** حرّيّة في التصرّف، ولكن دائمًا تحت وصاية روما وحمايتها. "الكلام على احتلال رومانيّ يسيطر على الشاردة والواردة في منطقة نفوذ أنتيباس ليس كلامًا دقيقًا"(١٥). لم يكن الرومان يتدخّلون إلاّ إذا خرجت الأمور عن السيطرة، تمامًا كما حصل لمّا اندلعت الثورة اليهوديّة سنة ٦٦–٧٠ ب.م.، ولمّا أخذت مدن الجليل تتساقط الواحدة تلو الأخرى في أيدي الثوّار. مقولة الاحتلال قد تصحّ في اليهوديّة أكثر منها في الجليل، لأنّ أرخيلاوس أميرها خُلع سنة ٦ ب.م.، ووُضعت ولايته تحت وصاية روما المباشرة.

حكم هيرودس أنتيباس إذًا حوالي ٤٣ سنة. إنّ مدّة الحكم هذه الطويلة، بالإضافة إلى المعلومات التي يمدّنا بها يوسيفوس عن فترة حكمه، تدلاّن على أنّ أنتيباس كان حاكمًا ماهرًا ومعتدلاً نسبيًّا. ومن بين الأحداث التي عاصرها يسوع، وهو تقريبًا في السنة العاشرة من عمره، الثورة التي أشعلها، سنة ٦، يهوذا الجولانيّ وصادوق الفرّيسيّ، وسمع بالتأكيد أخبارها والوحشيّة التي قُمعت بها.

(١٥) J. SCHLOSSER, *Jésus de Nazareth*, p. 44.

وكان أنتيباس أيضًا مثل أبيه بنّاءً عظيمًا. فقد أعاد بناء مدينة سيفوريس، كما بنى مدينة على شاطئ بحر الجليل ودعا اسمها طبريّة، تيمّنًا بالامبراطور الحاكم وقتئذٍ طيباريوس، واتّخذها عاصمة له. لا شكّ أنّ أعمال العمران هذه وفّرت مجال العمل لكثير من الجليليّين، لاسيّما للحرفيّين منهم شأن يوسف ويسوع، كما سنرى لاحقًا.

٤- الوضع الدينيّ: "أمّا هؤلاء الرعاع الذين لا يعرفون الشريعة، فهم ملعونون" (يو ٧:٤٩)

طالما اتّهم أهل الجليل بعدم الحماس الدينيّ وبقلّة التقوى وببعض التراخي في ما يختصّ بفرائض العبادة في الهيكل. نجد في الإنجيل آثارًا لهذا الصيت السيّئ (يو ٧:٤١، ٤٩، ٥٢). صحيح أنّ الجليليّين كانوا أقلّ تزمّتًا من أهل اليهوديّة، وذلك لقلّة تأثير الفرّيسيّين والكتبة عليهم، لأنّ هؤلاء كانوا يفدون إلى الجليل من أورشليم (مر ٧:١؛ ٣:٢٢). قلّة التزمّت هذه تربّى عليها يسوع الفتى، فطبعت شخصيّته أيّما طبع، وظهرت ملامحها لاحقًا في مواقفه المعارضة في أغلبها لمواقف الفرّيسيّين والكتبة.

لكنّ هذه الأحكام القاسية بحقّ الجليليّين، حتّى تلك الموجودة في الإنجيل أو تلك المنسوبة إلى بعض الربّانيّين[١٦]، لا تكفي، يقول شلوسّر، لاتّهامهم بعدم التديّن ولإلصاق لطخة الجحود بهم. فإنّ النصوص الإنجيليّة نفسها تُظهر بشكل واضح، ليس فقط مدى حماسة أهل الجليل الدينيّة (يو ٧:١-١٠)، بل أيضًا مدى تعلّقهم بأورشليم وبهيكلها[١٧]. ألم تكن هذه حالة عائلة يسوع، التي كانت تزور أورشليم للحجّ إلى هيكلها "كلّ سنة" (لو ٢:٤١)؟

(١٦) كقول الراتي ابن زكّاي (من النصف الثاني للقرن الأوّل ب.م.): "يا جليل، يا جليل، إنّك تمقتين التوراة".

(١٧) J. SCHLOSSER, *Jésus de Nazareth*, p. 51

القسم الثاني: العائلة: "مَن أمّي وإخوتي؟" (مر ٣:٣٣)

١- مريم ويوسف: "أليس هذا يسوع ابن يوسف، ونحن نعرف أباه وأمّه؟" (يو ٦:٤٢)

في ختام كلامه على طفولة يسوع، يقول لوقا إنّ مريم "أمّه كانت تحفظ تلك الأمور كلّها في قلبها" (لو ٢:٥١). يبدو أنّ لوقا يصرّ على هذه الملاحظة، لأنّه سبق وأوردها في ٢:١٩. لا شكّ في أنّ مريم كانت لِلُوقا خزّانَ معلومات، استقى منه معظم أخبار الطفولة التي دوّنها.

لم تطرح مريم أمّ يسوع مشكلة على العلماء بقدر ما طرح يوسف "أبوه"، هذا **الصامت الأكبر** في الإنجيل، الذي لم ينبسْ ببنت شفة.

من المعلوم أنّ ذكر يوسف أتى، أكثر ما أتى، في رواية أحداث طفولة يسوع، وبالأخصّ عند متّى الذي ركّز عليه أكثر ممّا ركّز على مريم (على عكس لوقا). مرقس الإنجيليّ لا يأتي على ذكره أبدًا، ولا أعمال الرسل، ولا الرسائل، ولا الرؤيا. أمّا يوحنّا فلا يذكره في إنجيله إلاّ مرّتين، وبطريقة عرضيّة، وذلك ليعرّف عن يسوع أنّه "ابن يوسف" (يو ١:٤٥؛ ٦:٤٢).

كان يوسف إذًا أبا يسوع، بحسب الشرع اليهوديّ، ووالدَه أيضًا في نظر الناس والمجتمع. ويبدو أنّه كان معروفًا في منطقته ومحيطه، بفعل عمله كحرفيّ. وكان يُعرف بين الناس بـ"النجّار"، حتّى من دون ذكر اسمه، كما ورد عند متّى: "أليس هذا ابنَ النجّار؟" (مت ١٣:٥٥).

وحده متّى يعطيه صفة دينيّة، "البارّ" (مت ١:١٩). والرجل البارّ، في المفهوم اليهوديّ، هو الإنسان الذي يعيش بحسب وصايا الربّ وأحكام شريعته. وهذا ما ينطبق جيّدًا على يوسف، المصرّ على تطبيق الشريعة عليه وعلى امرأته وعلى ابنه: يختن الصبيّ في اليوم الثامن، يقدّم للربّ بكره في يوم الأربعين، يحافظ على

شريعة تطهّر امرأته بعد نفاث الولادة، يصطحب عائلته كلّ سنة إلى الهيكل للحجّ، زار الهيكل لمّا بلغ ابنه سنّ الرشد الدينيّ في الثانية عشرة من عمره...

خارج إطار أناجيل الطفولة، لا نعلم شيئًا عن يوسف: كيف ومتى مات، هل عاصر أم لا رسالة يسوع...؟ من المعروف أنّه كان لا يزال على قيد الحياة لمّا بلغ يسوع عامه الثاني عشر، فاصطحبه إلى الهيكل في أورشليم. ومن المؤكّد أيضًا أنّه مات قبل أن يبدأ يسوع برسالته، لأنّ لا ذكر له أبدًا لا مع المدعوّين إلى عرس أحد أنسباء العائلة في قانا الجليل، ولا أثناء نشاط يسوع التبشيريّ، على عكس مريم التي رافقت ابنها من البداية حتّى الصلب. ربمّا توفّي يوسف قبل أن يبدأ يسوع رسالته بفترة قصيرة. هذا ما يوحي به على الأقلّ كلام اليهود في يو ٦:٤٢: "ونحن نعرف أباه وأمّه".

٢- "إخوة" يسوع و"أخواته"(١٨): "أليس هذا... أخا يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان؟ أوليست أخواته عندنا ههنا؟" (مر ٦:٣)

في نصوص عديدة، يذكر العهد الجديد أنّ ليسوع "إخوة" و"أخوات" (مر ٣:٣١-٣٥؛ ٦:١-٦؛ مت ١٣:٥٣-٥٨؛ يو ٢:١٢؛ ٧:٣-٥؛ أع ١:١٤؛ ١كو٩:٥؛ غل ١:١٩). لكن عدد هؤلاء الإخوة والأخوات لم يُحدّد. تتكلّم التقاليد اللاّحقة على أختين ليسوع اسماهما: مريم وصالومة، بينما يسمّي مر ٦:٣ ومت ١٣:٥٥ أربعة إخوة: يعقوب، ويوسى (أو يوسف)، ويهوذا وسمعان. في الواقع، هاتان العبارتان، "إخوة" وأخوات"، تطرحان مشكلة عويصة في كيفيّة فهمهما، وبالتالي في تحديد مدى قرابة يسوع لـ"إخوته" و"أخواته". ثلاث نظريّات قامت توضّح هذه المشكلة وتطرح لها الحلول(١٩)، سنعرضها بقليل من التفصيل نظرًا لأهمّيّة هذا الموضوع من الناحيتين العلميّة والرعويّة:

(١٨) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، راجع الكتاب الذي ظهر حديثًا:
P. -L. CARLE, *Les quatre frères de Jésus et la maternité virginale de Marie*, édition de l'Emmanuel, Paris 2004.

(١٩) P.-A. BERNHEIM, "Famille et éducation de Jésus", in M. QUESNEL - P. GRUSON, *La Bible et sa culture. Jésus et le Nouveau Testament*, p. 75-83.

الأولى، وتُنسب إلى **هلفيديوس** الذي عاش في نهاية القرن الرابع، تعتبر أنّ "إخوة" يسوع و"أخواته" هم أبناء يوسف ومريم الطبيعيّين، على حسب معنى كلمتَي "أخ" و"أخت" الطبيعيّ. اعتُبرت هذه النظريّة التي تبنّاها معظم العلماء البروتستانت، هرطقة، ورُذلت عندما أخذت عقيدة بتوليّة مريم الدائمة تنتشر في الأوساط المسيحيّة ابتداءً من القرن الرابع، علماً أنها تبقى غير كافية لتشرح ما كان عليه الأمر حقيقة. ومن أبرز نقاط ضعفها:

أ- وحده يسوع من بين "إخوته" يطلق عليه الإنجيل لقب "ابن مريم" (مر ٦:٣)، المشدّد بأل التعريف (ὁ υἱὸς).

ب- إذا كان ليسوع إخوة من أبيه وأمّه، فلماذا أوكل يسوع إلى يوحنّا تلميذه رعاية أمّه وهو على الصليب (يو ١٩:٢٥-٢٧)؟

ج- إنّ مفهوم البكريّة عند اليهود، والذي يطبّقه لوقا على يسوع ("وولدت ابنها البكر" لو ٢:٧)، لا يحتّم بالضرورة وجود أبناء آخرين يكون الولد الأوّل بكرَهم. في العبريّة، يُسمّى بكرًا من يفتح رحم أمّه. هذا ما يؤكّده أحد النقوش القديمة على قبر يحوي رفات أمّ ماتت وهي تضع ابنها "البكر".

د- لا تذكر أناجيل الطفولة وجود ولد آخر غير يسوع في بيت يوسف ومريم، لاسيّما نصّ زيارة الحجّ إلى هيكل أورشليم لمّا كان يسوع قد بلغ الثانية عشرة من عمره (لو ٢:٤١-٥٠). تأتي نصوص الحجّ عادةً على ذكر أفراد العائلة كلّها: الأب والأمّ والأبناء جميعهم، وذلك نظرًا لأهمّيّة هذا الحدث بالنسبة إلى اليهوديّ. غير أنّنا في نصّ لوقا لا نجد ابنًا مع يوسف ومريم سوى يسوع وحده. يتساءل هنا رينيه لورنتان قائلاً: "إن كان لمريم أولاد آخرون، هل كان بإمكانها، ساعتئذٍ، أن تقوم برحلة الحجّ إلى أورشليم "كلّ سنة"، حسبما ورد عند لو ٢:٤١؟"(٢٠). في الواقع، كانت رحلة الحجّ إلى أورشليم تستغرق بين

(٢٠) R. LAURENTIN, *Vie authentique de Jésus Christ*, Fayard, Paris 1996, p. 87.

ثلاثة وأربعة أيّام، وكانت لا تخلو من التعب والمشقّة. لهذا لم تكن النساء مجبرات على القيام بها كلّ سنة، خصوصًا اللّواتي لديهنّ أولاد عديدون.

هـ- إنّ عبارة " أنا لا أعرف رجلاً" التي قالتها مريم للملاك جبرائيل (لو ١: ٣٤)، تعبّر عن حالة مريم في الحاضر (كما يمكن أن تدلّ صيغة الفعل)، وفي المستقبل، أي في الزمان الذي كتب فيه لوقا إنجيله، حوالي سنة الثمانين من القرن الأوّل. لو كانت مريم تقصد في جوابها على الملاك أنّها لم تعرف بعدُ أيّ رجل، لكان جبرائيل جاوبها: "إذهبي إذًا واعرفي يوسف". وهذا ما لم يقله.

النظريّة الثانية، التي تُنسَب **لأبيفانوس** أسقف سلامين في قبرص (٣١٥-٤٠٣)، تعتبر أنّ "إخوة" و"أخوات" يسوع هم أبناء يوسف فقط من زواج سابق لزواجه من مريم. لقد سبق لهذه النظريّة أن وُجدت قبلاً في **إنجيل يعقوب التمهيديّ** المنحول (النصف الثاني من القرن الثاني). يصعب إثبات هذه النظريّة كما يصعب رذلها بالتمام. أكثر ما انتُقد فيها هو أنّها تعارض فكرة بكريّة يسوع. بعض آباء الكنيسة، وبالتالي بعض الأرثوذكسيّين، يتبنّون هذه النظريّة.

النظريّة الثالثة، وهي التي أطلقها أوّلاً القدّيس **إيرونيموس** في أواخر القرن الرابع، وتبنّتها الكنيسة الكاثوليكيّة، تعتبر أنّ لفظة "أخ" تدلّ على قريب من العائلة (إبن العم أو ابن الخال...). ينتقد إيرونيموس النظريّتين السابقتين، ويعتبرهما مناقضتين لبتوليّة مريم ويوسف. وقوام نظريّته أربع نقاط:

أ- مريم، أمّ يعقوب الصغير ويوسى المذكورة في مر ١٥: ٤٠، ليست أمّ يسوع.

ب- يعقوب الصغير ويوسى، المذكورين في مر ١٥: ٤٠، ليسا إلاّ يعقوب ويوسى المذكورين في مر ٦: ٣ (لكن لدينا هنا احتمال ترجمة أخرى).

ج- أمّ يعقوب الصغير ويوسى هي قريبة مريم أو يوسف.

د- إنّ اللغة العبريّة لا تملك مفردة خاصّة للتعبير عن ابن العم أو ابن الخال، لهذا استعمل الكتاب المقدّس، حتّى اليونانيّ منه، مفردة "أخ" و"أخت" للدلالة

على النسيب (راجع مثلاً تك ١٣: ٨؛ ١٤: ١٤؛ ٢٩: ١٢-١٥؛ طو ٥: ٢٠؛ ٦: ١٧...).

كثيرًا ما انتُقدت هذه النظريّة. ومن أهمّ ما قيل فيها:

أ- إنّ اللغة اليونانيّة التي فيها كُتبت الأناجيل لديها مفردة خاصّة للدلالة على القريب، فلماذا إذًا استعمال كلمة "أخ"؟ لكنّ رينيه لورنتان وجد أنّ الترجمة السبعينيّة لا تستعمل كلمة ἀνεψιός، التي تعني "النسيب"، سوى مرّتين فقط (عد ٣٦: ١١؛ طو ٧: ٢)، وذلك لتوضّح أكثر درجة القرابة الموجودة بين الأشخاص المعنيّين. ويتابع لورنتان قائلاً إنّ العهد الجديد، مع أنّه دُوِّن باليونانيّة، حافظ على طريقة اللغة العبريّة في التعبير. حتّى لوقا نفسه، البارع في اليونانيّة، أبقى على هذه النكهة الساميّة في التعبير(٢١).

ب) من المفروض والطبيعيّ أن يكون بولس والإنجيليّون على اطّلاع كافٍ هل كان ليسوع إخوة أم لا. ولمّا كانوا قد استعملوا كلمة "أخ" وليس غيرها، فذلك لأنّهم كانوا يعرفون أنّ ليسوع إخوة من أبيه وأمّه.

ج) لا وجود مثبت لهذه النظريّة قبل إيرونيموس، أي أنّها وُجدت أربعة قرون بعد مولد يسوع. لكن لهذا الاعتراض تفسيره، وهو أنّ الأناجيل، ومعها التقليد الكنسيّ والآبائيّ، لم يُعِر بتوليّة مريم الدائمة أهمّيّة كبيرة، لأنّ الهدف الرئيسيّ كان إثبات ولادة يسوع البتوليّة، دون الالتفات إلى ما جرى لمريم بعد ولادته.

د) يطابق إيرونيموس بين يعقوب الصغير، الذي هو أيضًا، بالنسبة إليه، يعقوب أخو الربّ وأسقف أورشليم الأوّل (غل ١: ١٩)، وبين يعقوب ابن حلفى أحد الاثني عشر. هذا التطابق في الهويّة يرفضه معظم العلماء: يعقوب أخو الربّ هو غير يعقوب ابن حلفى.

(٢١) راجع: R. LAURENTIN, *Vie Authentique*, p. 85

٣- عائلة وعشيرة: "ها إنّ أمّك وإخوتك يطلبونك" (مر ٣: ٣٢)

بعد هذا العرض، نسأل: أيّة نظريّة هي الأصحّ والأقرب إلى الواقع؟ يعترف البحّاثة اليوم بصعوبة الجزم في هذه القضيّة. فلكلّ نظريّة مبرّراتها وحججها. الجدير بالذكر هنا "أنّه، من الوجهة التاريخيّة، وليست العقائديّة، ليس هناك ما يمنع أن يكون ليسوع إخوة وأخوات من أبيه وأمّه"(٢٢).

من الأفضل اليوم أن نتكلّم على "عائلة" يسوع بالمعنى الواسع للكلمة، أي العائلة الكبيرة التي تضمّ، بالإضافة إلى البيت الوالديّ، الأقارب والأنسباء من أبناء العمّ والعمّة، وأبناء الخال والخالة. يقول شلوسّر في هذا المجال إنّه، بغضّ النظر عن إعطاء المفردتين "أخ" و"أخت" معنى واسعًا أو حصريًّا، يجب علينا أن نرمي ذلك المشهد الذي تقدّمه لنا عادةً الأيقونات والصور، والذي يُظهر يسوع عائشًا في "شرنقة" عائليّة صغيرة مكوّنة فقط من الأب والأمّ والابن.

الأكيد أنّ يسوع تربّى ضمن عائلة كبيرة، كما كانت عائلات ذلك الزمان، التي يغلب عليها الطابع العشائريّ(٢٣). كلّنا يعلم ما للعشيرة والعائلة من أهمّيّة بالغة في الشرق حتّى يومنا هذا، لاسيّما في المجتمعات المحافظة. وعلينا أن نعلم أيضًا أنّ مفهوم "البيت" قديمًا كان غير ما هو عليه اليوم. كان البيت الواحد قديمًا يحوي عدّة "عائلات" تنتمي كلّها إلى جبّ واحد. فالأب، عندما كان يزوّج أحد أبنائه، لم يكن يتحمّل مشقّة التفتيش عن بيت جديد لابنه ولعائلته الجديدة المزمعة أن تتكوّن، بل كان يكتفي بتقسيم البيت الوالديّ إلى عدّة غرف، يعطي ابنه بعضها. في العهد الجديد، لدينا حالة تشبه الحالة التي نصفها: في مر ١: ٢٩-٣١، نجد أنّ بيت بطرس الزوجيّ هو أيضًا مكان إقامة حماته وأندراوس أخيه. ونتيجة لهذا التساكن المتعدّد تحت سقف واحد، لا عجب إذا سمّي ابن العمّ أخًا، باعتبار أنّ الجميع يسكنون تحت سقف واحد.

(٢٢) J. SCHLOSSER, *Jésus de Nazareth*, p. 38

(٢٣) المرجع السابق، ص ٣٨.

٤- أزمة علاقة؟: "إنّه ضائع الرشد" (مر ٣: ٢١)

بعد هذا، ماذا يمكننا القول عن "عائلة" يسوع (بمعناها الواسع)؟ هل تعطينا الأناجيل بعضًا من ملامحها؟

لا شكّ أنّها كانت عائلة يهوديّة تقيّة ومحافظة. هذا أوّل ما يلاحظه القارئ في أسماء "إخوة"، وهي أسماء الآباء عند اليهود: يعقوب ويوسف (يوسى)، يهوذا وسمعان (مر ٦: ٣). ولا ننسى ما حفظه لنا التقليد الكنسيّ عن يعقوب أخي الربّ وأوّل أساقفة أورشليم، الذي كان تحيط به هالة عظيمة من الاحترام والوقار، بفضل تقواه الجزيلة وتعلّقه بتقاليد الآباء. كما أنّ "إخوة" يسوع الآخرين، سمعان ويهوذا، كان لهم لاحقًا الدور الأساسيّ والفعّال في الجماعات المسيحيّة ذات البيئة المحافظة المتهوّدة.

لكن يُطرح هنا سؤال مهمّ: هل كان ليسوع علاقة طيّبة مع أفراد عائلته، أم مرّت علاقته بهم بأزمات سببها عدم الفهم والتباين في الأفكار؟ لماذا نطرح هذا السؤال؟ لأنّنا نشتمّ من الإنجيل رائحة علاقة "متوتّرة"، لم تكن دائمًا سلاميّة بين يسوع وعائلته. إذا لم نعطِ، من جهة، أهمّيّة كبيرة لغياب أيّ اتّصال يُذكر ليسوع مع عائلته أثناء عمله التبشيريّ، وللصمت الغريب الذي يلاحق ذكر يوسف، وبعض الشيء مريم، فلا يمكننا، من جهة ثانية، أن نتجاهل المشادّة التي حصلت بين يسوع وبين أفراد عائلته حين أراد هؤلاء أن يمنعوه من أن يُكمل عمله التبشيريّ ناعتين إيّاه بـ"ضائع الرشد" (مر ٣: ٢١). وفي مر ٣: ٣١-٣٥ أيضًا، يتبيّن أنّ يسوع لم يُعطِ أهمّيّة كافية لعائلته. وفي الإنجيل الرابع، يقول يوحنّا إنّ "إخوته لم يكونوا يؤمنون به" (يو ٧: ٥).

أعطيت شروح كثيرة لهذه العلاقة "المتوتّرة"، وحاولت التخفيف من وطأتها. من بين هذه هناك واحدة لبيرنهايم الذي يقول: "نستطيع أن نتساءل إذا كانت هذه السوداويّة، لا بل هذه العداوة بين يسوع وعائلته، لا تعكس، بنحوٍ أو بآخر، الصراعات اللاّحقة التي حصلت بين الجماعات المسيحيّة المرتبطة بإخوة

يسوع من جهة [=الجماعات المتهوّدة، لاسيّما تلك التي كانت في أورشليم]، والجماعات المتعلّقة بمرقس ويوحنّا من جهة أخرى"(٢٤).

سواء تبنّينا هذا الشرح أم لا، لا نستطيع أن ننفي بشكلٍ كلّيّ عدم الفهم الذي تعرّض له يسوع في بداية عمله التبشيريّ، ليس فقط من قِبل أهل قريته الناصرة، بل حتّى من أقرب المقرّبين إليه. هذا يعود بالطبع إلى المفاهيم الجديدة التي نادى بها يسوع والتي كان بعضها يُعتبر تجاوزًا لما كان معروفًا ومعمولاً به آنذاك.

القسم الثالث: العمل

"إنّ أبي ما يزال يعمل، وأنا أعمل أيضًا" (يو ٥:١٧)

١- مهنة يسوع: "أليس هذا النجّار ابن مريم؟" (مر ٦:٣)

ينقل لنا متّى أنّ يوسف كان نجّارًا (مت ١٣:٥٥)، أمّا مرقس فيطلق هذا اللقب على يسوع نفسه: "أليس هذا النجّار ابن مريم" (مر ٦:٣). لا شكّ في أنّ يوسف علّم يسوع المهنة التي كان يزاولها هو. فقد كانت العادة تلك الأيّام أن يورث الأب مهنته مع عدّتها ومشغلها لابنه من بعده. لم يكن الحافز لذلك ماليًّا فحسب، أي تأمين معيشة العائلة، أو عائليًّا وراثيًّا، لتخليد ذكرى الأب، بل أيضًا دينيّ. كان العمل اليدويّ عند اليهود شيئًا مقدّسًا ومحترمًا جدًّا. كان التلمود، مثلاً، يوصي الآباء بتعليم أولادهم مهنة يدويّة، لأنّ "من لا يعلّم ابنه مهنة يدويّة يصنع منه لصًّا". وكان الربّانيّون يفضّلون الشخص الذي يعتاش من مهنته على الذي كان يعيش حياة التقوى بطّالاً. حتّى هم أنفسهم كان يزاول كلّ منهم مهنة يدويّة تُعيله هو وعائلته: الرابّي هيلّل، مثلاً، كان حطّابًا، وشاول، الفرّيسيّ المحافظ، كان خائط خيم.

(٢٤) P.-A. BERNHEIM, "Famille et éducation...", p. 78-79.

غير أنّ المفردة τέκτων التي استعملها متى، والتي تترجم عادةً بـ"نجّار"، لا تعني النجّار الذي يعمل في الخشب ويصنّع العربات والنير وسائر المنتوجات الخشبيّة فحسب، بل أيضًا البنّاء الذي يعمل في الحجارة، والحدّاد الذي عمله في الحديد. وإذا قرأنا الأناجيل، نرى أنّ نصوصًا عديدة تبيّن لنا معرفة يسوع بأصول البناء وببعض مصطلحاته:

- ضرورة وضع الأساس والخرائط قبل المباشرة بالبناء (لو ١٤: ٢٨-٣٠).
- البيت المبنيّ على الصخر أمتن من البيت المبنيّ على الرمل (مت ٧: ٢٤-٢٧).
- استشهاد يسوع بالمزمور ١١٨: ٢٢: "الحجر الذي رذله البنّاؤون هو الذي صار رأسًا للزاوية" (مت ٢١: ٤٢).

٢- خبرة ونضوج: "وكان يسوع يطوف في المدن كلّها والقرى..." (مت ٩: ٣٥)

يطرح هنا سؤال: هل كانت الناصرة، كقرية جليليّة صغيرة بحجمها وبعدد سكّانها، تشكّل سوق عمل كافٍ لحرفيّ يزاول مهنة النجارة والبناء؟ بالطبع وحدها لم تكن تكفي. من هنا نستطيع أن نستنتج أنّ يوسف ويسوع كانا يتنقّلان في القرى والمدن المجاورة طلبًا للعمل، لاسيّما في مدن مثل سيفوريس، المجاورة للناصرة (بين ٥ و٦ كلم)(٢٥)، وطبريّة، عاصمة هيرودس أنتيباس الحديثة العهد، ومجدلة على ضفاف بحيرة طبريّة.

(٢٥) يعتبر بعضهم أنّ يسوع وأباه وربّما شاركا في بناء مسرح سيفوريس المشهور. وذهبت مخيّلة البعض إلى أن يقولوا إنّ يسوع كان يشاهد هناك بعض العروض المسرحيّة التي كانت تُقدَّم على مسرح سيفوريس، وحجّتهم في ذلك استعمال يسوع في بشارته في ما بعد كلمة ὑποκριτής، التي تعني في اليونانيّة "ممثّل". يصعب علينا تبنّي هذه الحجّة لأسباب عدّة: أوّلها، علينا التأكّد من أنّ النصوص التي تحوي هذه الكلمة تنتمي إلى كلمات يسوع الكاريزميّة (Logia)؛ ثانيها، يصعب التأكّد من إلمام يسوع باليونانيّة إلمامًا يمكّنه لحضور مثل تلك الاحتفالات؛ ثالثها، لا تحيّذ تربية اليهوديّ المحافظة وأخلاقيّتها التوراتيّة ارتياد المسارح والحفلات؛ رابعها، لا يستعمل العهد الجديد كلمة ὑποκριτής بمعنى "ممثّل"، ولا يربطها أبدًا بالمسرح والدراما والتراجيديا، بل يُرجعها إلى معناها الأصليّ، وهو الإنسان المتظاهر من ذاته والمكتفي بنفسه. راجع:
G. VERMES, *Enquête...*, p. 157.

لا شكّ في أنّ هذا التنقّل أتاح ليسوع أن يكتسب خبرة في تعامله مع الناس ونضوجًا في شخصيّته. وهذا ما ظهر بوضوح في أحاديثه وتعليمه في ما بعد، لا سيّما في تنوّع الأمثال التي كان يلقيها على الناس(٢٦).

كما أتاح له أن يطّلع على أحوال المدن، وعلى التفاوت الاجتماعيّ بين طبقات المجتمع المختلفة: بين الأغنياء والفقراء، وبين الأحرار والعبيد. خبرة كهذه لا يمكن اكتسابها في قرية ريفيّة صغيرة مثل الناصرة. لا شكّ في أنّ الفتى يسوع شعر بالنفور الداخليّ لرؤيته الظلم الذي كان يُلحقه الأغنياء وأصحاب المناصب بمن هم أدنى منهم مرتبة. لهذا السبب، ربّما، نستطيع أن نفسّر لماذا لم يزُر يسوع، أثناء نشاطه التبشيريّ، مدنًا مهمّة مثل سيفوريس وطبريّة ومجدلة، أو على الأقل السبب الذي دفع الإنجيل إلى عدم ذكر زيارة يسوع لهذه المدن إن كانت فعلاً قد حصلت. فضلاً عن ذلك، يُعرف عن يسوع طبعه الريفيّ وعدم ميله إلى المدن. لم يكن يعشق التجوّل في المدن، خصوصًا تلك التي يغلب عليها طابع الثراء، كالمدن التي ذكرناها. يوسيفوس نفسه يفيدنا بأنّ أهل سيفوريس الأغنياء كانوا ممقوتين من قبل سائر الجليليّين(٢٧).

على كلّ حال، لم تكن العلاقات الاجتماعيّة في القديم بين الطبقات الاجتماعيّة المختلفة متوسّعة أو سهلة كما هي اليوم. فنادرًا ما كان يتخالط الأغنياء والفقراء، أو الأحرار والعبيد. كان لكلٍّ منهم مجتمعه وعاداته وتقاليده، وأيضًا مناطقه. هذا لا يعني أنّ يسوع لم يُقم بالمطلق أيّة علاقات مع أغنياء وميسورين. فالأناجيل تخبرنا عن صداقات له مع المجتمع المخمليّ: كيف استقبلوه في بيوتهم وكيف مالحهم على موائدهم. بالعموم، كان يسوع يتعاطف بالأكثر مع الفقراء والمديونين والمظلومين والذين رذلهم المجتمع. رفض مرّة، على سبيل المثال، أن يقضي بين اثنين اختلفا على تقاسم الميراث (لو ١٢: ١٣-٢١)(٢٨).

---

(٢٦) راجع: J. SCHLOSSER, *Jésus de Nazareth*, p. 46

(٢٧) يوسيفوس، **السيرة الذاتيّة**، ٣٤ و ٣٧٥-٣٧٨.

(٢٨) راجع: J. SCHLOSSER, *Jésus de Nazareth*, p. 48

٣- يسوع المزارع؟: "خرج الزارع ليزرع..." (مر ٤: ٢)

سؤال آخر يُطرح: نظرًا لطبيعة الجليل الزراعيّة الخصبة، هل كان يسوع يزاول الزراعة إلى جانب مهنته الحرفيّة؟ لربّما امتلكت عائلة يسوع أراضي زراعيّة، ليس بالضرورة أملاكًا واسعة، بل قد تكون بضعة أمتار حول المنزل. وإن لم يكن هو وعائلته الصغيرة، قد يكون أنسباؤه والمقرّبون إليه من الفلاّحين أو من الأجراء العاملين في أراضي الملاّكين، أو من الوكلاء الذين كان يأتمنهم الأسياد الأغنياء، المتمركزين في المدن، على أراضيهم في القرى.

ممّا لا شكّ فيه أنّ يسوع كان مطّلعًا على عالم الزراعة اطّلاعًا دقيقًا، سواء على طريقة الزرع أو على نظام العمل الزراعيّ. ومن هذا العمل الزراعيّ استقى يسوع معظم أمثاله المعبّرة:

- الكرّامون القتلة (مر ١٢: ١-١٢)
- الدائن العديم الشفقة (مت ١٨: ٢٣-٣٥)
- عملة الكرم (مت ٢٠: ١-١٦)
- الوكيل الخائن (لو ١٦: ١-٨)

كما يُلاحظ معرفة يسوع لأحوال الطقس وتغيّراته ولمدى تأثيره على حياة الفلاّح وعمله (مت ١٦: ٢؛ ٢٤: ٣٢).

وعلى عادة كلّ بيت شرقيّ ريفيّ، كانت العائلة تعتني بتربية بعض الدواجن والغنم والمَعِز في محيط البيت. وقد أخذ يسوع من هذا العالم أيضًا بعضًا من صوره مثل منظر الدجاجة التي تجمع فراخها حولها (لو ١٣: ٣٤)، أو منظر الخرفان في الحظيرة (يو ١٠) أو وهي ترعى في البراري، ويشرد واحد منها فيذهب الراعي ويعود به إلى القطيع (لو ١٥: ٣-٦).

٤- حرفيّ مَكفيّ: "ويقرّبا... زوجَي يمام أو فرخَي حمام" (لو ٢: ٢٤)

بعد هذا، هل نقدر أن نقول إنّ عائلة يسوع كانت ميسورة من الناحية

الاقتصاديّة، وذات درجة اجتماعيّة مرموقة؟ في زمن الإنجيل، كان الحرفيّون، شأن يوسف ويسوع، ينتمون إلى الدرجة المتوسّطة التي كانت تعمل لتعيش وتحصّل قوتها، لكن من دون أن تُحسَب بين الدرجات الفقيرة أو المعدومة. نقرأ في الإنجيل أنّ عائلة يسوع قدّمت للهيكل، لمّا قدّمت يسوع البكر للربّ، "زوجَي يمام أو فرخَي حمام" (لو ٢:٢٤)، وهي تقدمة كان يقرّبها الناس ذوو الدخل المحدود. وكان العمّال يعملون ما بين العشرة والاثنتي عشرة ساعة يوميًّا (يو ١١:٩). على كلّ حال، لم يكن المجتمع الفلسطينيّ يحتقر أبدًا الحرفيّين، كما هي الحال في المجتمعَين اليونانيّ والرومانيّ. بل على العكس من ذلك، كان التلمود اليهوديّ يوصي، كما ذكرنا سابقًا، كلّ إنسان باقتناء حرفة تعيله هو وعائلته وَتَقِيهِ العوز.

نشير هنا إلى نقطة مهمّة، وهي أنّ يسوع ويوسف، في عملهما الحرفيّ سواء في القرى أو في المدن، كانا يبيعان ما تنتجه أيديهما من المنتوجات الخشبيّة بطريقة المقايضة (منتوج مقابل منتوج آخر). كانت هذه الطريقة رائجة في ذلك الوقت، لكنّها لا تلغي إمكانيّة وجود تجارة تعتمد على النقد الماليّ، وهذا ما يؤكّده علم الآثار، إذ تمّ اكتشاف عدد لا بأس به من المسكوكات المعدنيّة التي يعود تاريخها إلى ذلك العهد.

القسم الرابع: التربية

"وكان يسوع ينمو في الحكمة والقامة والحظوة عند الله والناس" (لو ٢:٥٢)

١– قبل سنّ الثانية عشرة: "وكان الطفل يترعرع ويشتدّ ممتلئًا حكمة، وكانت نعمة الله عليه" (لو ٢:٤٠)

يختم لوقا أخبار طفولة يسوع بقوله: "وكان يسوع ينمو في الحكمة والقامة والحظوة عند الله والناس" (لو ٢:٥٢). لا شكّ أنّ للوقا في هذه الخاتمة هدفًا لاهوتيًّا يبغي من خلاله مقابلة يسوع مع يوحنّا المعمدان (لو ١:٨٠) ومع بعض

رجالات العهد القديم، كصموئيل (١صم ٢:٢٦). هذا الهدف اللاّهوتيّ لملاحظة لوقا لا يقلّل، بالمقابل، من قيمتها التاريخيّة. لقد نما يسوع فعلاً نموًّا إنسانيًّا طبيعيًّا كما ينمو كلّ إنسان على وجه الأرض. هذا البعد الإنسانيّ في شخصيّة يسوع، طالما ركّز عليه الإيمان المسيحيّ نفسه، لأنّ فيه تتجلّى إنسانيّة يسوع "الكاملة": "هو مشابه لإخوته في كلّ شيء" (عب ٢:١٧)، لأنّه "امتُحن في كلّ شيء مثلنا ما عدا الخطيئة" (عب ٤:١٥).

نشدّد هنا على نموّ يسوع الطبيعيّ نفسيًّا وجسديًّا، ليس إلاّ لأنّه ظهرت أفكار تقويّة كثيرة من هنا ومن هناك، ألبست يسوع الطفل قدرات عقليّة فائقة الطبيعة، مسخت فيه إنسانيّته وطبيعته العقلانيّة (كما في الأناجيل المنحولة مثلاً). يقول ريمون براون في هذا المجال: "إذا كانت معرفة يسوع محدودة، كما هو وارد في الإنجيل، فهذا يُفهمنا أكثر كيف أنّ الله أحبّنا إلى حدّ أنّه أخضع نفسه لأكثر مظاهر ضعفنا بيانًا"(٢٩).

إنطلاقًا من هذا المبدأ، سنتطرّق في هذه النقطة إلى التربية التي تلقّاها يسوع من عائلته في البيت ومن محيطه، والتي تتشابه مع التربية التي كان يتلقّاها كلّ فتى يهوديّ في زمانه، مستندين في ذلك إلى بعض المراجع الموثوقة في هذا المجال، ومستنتجين بعض عناصر التربية ممّا ورد في بعض النصوص الإنجيليّة.

أ- في البيت

لنبدأ من البيت، وهو نطاق الولد الضيّق ومحيطه الأوّل.

يخبرنا لوقا أنّ يسوع "كان طائعًا" لأبويه يوسف ومريم (لو ٢:٥١). إنّ طاعة الوالدين، بل إكرامهما، هي من ميزات التربية اليهوديّة الأساسيّة. لقد فرضت الشريعة، في كلمات الوصايا العشر، أن يُكرم الولدُ أباه وأمّه، حتّى "تطول أيّامه ويصيب خيرًا في الأرض التي يعطيها إيّاه الربّ إلهه" (خر ٢٠:١٢؛ تث ٥:١٦).

(٢٩) R. BROWN, *An Introduction to the New Testament*, Doubleday/ The Anchor Bible Reference Library, New York 1997, p. 73.

يظهر أنّ يسوع عاش في طفولته حياة عائليّة دافئة، استقى منها لاحقًا بعضًا من أمثاله المشهورة. فقد كان يراقب جيّدًا أمّه وأباه كيف كانا يتدبّران أمور البيت، فانطبعت في ذهنه بعض المشاهد والذكريات التي لم يمحُها الزمن، لا هي ولا حتّى تفاصيلها:

- مشهد أمّه عندما كانت تعجن الخميرة مع "ثلاثة مكاييل من الدقيق، فيختمر العجين كلّه" (مت ١٣:٣٣).
- أو عندما كانت تتجنّب رقع خرق في ثوب جديد برقعة قديمة لئلاّ يتشوّه المنظر (مر ٢:٢١).
- مشهد طحن الحبوب على حجر الرحى (مت ٢٤:٤١).
- مشهد يوسف وهو يقضّب الكرمة (يو ١٥:١-٣)، ويعصر العنب ليصنع منه خمرة جيّدة تُسكب في زقاق جديدة (مر ٢:٢٢).
- كيف كان يشارك أباه الفراش الدافئ في الليالي الباردة (لو ١١:٧).

ب - مع فتيان الحيّ

لا يمكننا أن نتخيّل ولدًا ينمو نموًّا طبيعيًّا بمعزل عن رفاق عمره، أو من دون معاشرة صبية الحيّ أو القرية. لذا كان ليسوع الفتى أيضًا علاقات، ليس فقط مع أبويه ضمن نطاق البيت، بل مع الفتيان أبناء جيله أيضًا. لقد شاركهم بالطبع ألعابهم ومرحهم وهيصاتهم، وأحيانًا صراعاتهم الصبيانيّة البريئة، سواء قرب البيت أم في ساحة الضيعة. وفي الإنجيل برهان على ما نقوله. ففي مت ١١:١٦-١٧، يشبّه يسوع الجيل الذي عاصره بالأولاد الجالسين في الساحات، يصيحون بأصحابهم: "زمّرنا لكم فلم ترقصوا، ندبنا لكم فلم تضربوا صدوركم". قد يفيدنا هذا النصّ في إلقاء الضوء على بعض الألعاب التي كان يلعبها الأولاد آنذاك، ومن بينهم طبعًا يسوع نفسه:

- لعبة العرس: يقوم الأولاد بتقليد الكبار، فينظّمون "عرسًا" يكون فيه من يلعب دور العروس، وآخر دور العروسة، وآخرون دور العازفين، وآخرون دور الراقصين.

– لعبة المآتم: يقلّد الأولادُ الكبارَ عندما يندبون أحد الأموات: ميت مزعوم، وأولاد آخرون يندبون ويضربون صدورهم.

ولم تكن تخلو هاتان اللعبتان من بعض المشاحنة، لأنّ ما يروق لبعض الأولاد لا يروق لآخرين(٣٠).

ومع نموّه شيئًا فشيئًا، كانت ليسوع أيضًا علاقات مع أبناء قريته. فقد كان يحلو له، مثلاً، المشاركة في الأفراح والأعياد، لاسيّما في الأعراس، حيث كان يشاهد "حُلل العرس" التي كان يرتديها المدعوّون (مت ٢٢: ١٢)، ويرى أيضًا كيف كانت الصبايا "تخرج للقاء العريس حاملات مصابيحهنّ" (مت ٢٥: ١–١٣)، وكيف كانت تُفرش الموائد وتُحضّر الولائم لهذه المناسبة السعيدة (مت ٢٢: ٢–١٤).

ج– في "المدرسة"

وعندما كان الولد يبلغ درجة كافية من الوعي، يُرسله أهله إلى المجمع، أو ما شابهه، ليتعلّم هناك القراءة والكتابة. وكان الكتاب الأوحد الذي يتعلّم فيه الأولاد هو الكتاب المُقدّس، لاسيّما التوراة وكتاب المزامير. من هنا كانت تُسمّى هذه "المدرسة" الأولى "بيت الكتاب" (bet ha-sefer).

في نظام التعليم، كان الله يتغلغل في كلّ شيء. كانت التربية اليهوديّة، التي تلقّاها يسوع الطفل، تربيةً محورها الله (théocentrique):

– أسماء العلم، مثلاً، كانت مستوحاة من الاسم الإلهيّ: يشوع (الله يُخلّص)، يوحنّا (الله حنون)، عمّانوئيل (الله معنا)...

– وكان لكلّ شيء رمزيّته ومعناه: أسماء الأمكنة (بيت لحم = بيت الخبز؛ أورشليم = مدينة السّلام...)، والأرقام (١٢ = أسباط إسرائيل الاثنا عشر؛ ٤ = أقطار العالم الأربعة...).

(٣٠) حول هذا الموضوع، راجع: H.-R. WEBER, *Jésus et les enfants*, Centurion, Paris 1980, 13-14.

– حتّى المفهوم اليهوديّ للزمن هو مفهومٌ إلهيّ: الماضي هو الوقت الذي تجلّت فيه أعمال الله العظيمة والمخلِّصة؛ والحاضر ما هو إلاّ "إعادة إعمار" لهذا الماضي، لاسيّما في الاحتفالات الطقسيّة والأعياد(٣١)؛ أمّا المستقبل فما هو إلاّ تطلّع نحو الزمن الآتي الذي سيعطيه لنا الله(٣٢).

وكان التعليم آنذاك ذو نكهةٍ ساميّةٍ محضة. فاللغة الآراميّة التي تعلّمها يسوع كانت تجهل التجريد والتنظير، المعروفَين جدًّا في العالم اليونانيّ. كانت تُعبِّر عن كلّ شيء بألفاظٍ مُستمدّة من واقع الحياة: فالمدرسة، مثلاً، هي "بيت الكتاب"؛ والله هو "قدّوس القدّيسين" و"البعل" و"السيّد"؛ والقانون الأخلاقيّ يُختصر بـ "عينٌ بعين وسنٌّ بسن"(٣٣).

في هذا الجوّ الساميّ، والواقعيّ، والإلهيّ، ربّي يسوع وتلقّى علومه الأولى.

د– التربية الدينية(٣٤)

لا تذكر الأناجيل شيئًا عن التعليم الذي تلقّاه يسوع قبل البدء برسالته. غير أنّ بعض النصوص توحي بأنّ يسوع لم يتعلّم أيّة علوم كلاسيكيّة: "فتعجّب اليهود وقالوا: كيف يعرف هذا الكتب ولم يتعلّم؟" (يو ٧: ١٥)؛ وفي مكان آخر تعجّب أهل الناصرة، قريته، من قدرة يسوع على الكلام بحكمة، مع أنّهم يعرفون أنّه ابن نجّار: "من أين له هذه الحكمة وتلك المعجزات؟ أليس هذا ابن النجّار...، فمن أين له كلّ هذا؟" (مت ١٣: ٥٤–٥٥؛ راجع أيضًا مر ٦: ٢). نفهم من هذه

(٣١) في عيد الفصح مثلاً، تتذكّر العائلة المُجتمعة على العشاء حدث الخروج من مصر، لكن ليس كحدث وقع في الماضي وجرى مع يهود القرن الثالث عشر ق.م. وحسب، بل كحدث آنيّ يختبر فيه الفرد الحاضر التحرّر نفسه.

(٣٢) على طاولة عشاء الفصح ذاتها، كان يُترك مكانٌ فارغ مُخصّص للنبي إيليّا الذي ينتظر اليهود مجيئه الثاني كي يُبشّرهم بقدوم المسيح المُنتظر.

(٣٣) مثلٌ آخر مُعبّرٌ جدًّا: إنّ تعبير سفر الجامعة المشهور "هبل هبليم"، يُترجم عادةً بـ "باطل الأباطيل". ولكن إذا أردنا أن نُحافظ على نكهة النصّ الساميّة، علينا أن نترجم هذه العبارة حرفيًّا بـ "هبلة الهبلات" (الهبلة = النفَس الشديد التبخّر).

(٣٤) معظم هذا الجزء مستوحى من: R. ARON, *Les années obscures de Jésus*.

النصوص أنّ يسوع لم يكن ينتمي إلى سلك علماء الناموس أو الكهنة، وليس "مثل الكتبة" (مر ١:٢٢) الذين كانوا يقضون وقتهم في نسخ الكتب ودرسها وتحليلها. لقد عرفت الجماهير يسوع إنسانًا "علمانيًّا"، وليس من رجال "الإكليروس". من هنا أتى تعجّب الناس في محلّه، لاسيّما أهل موطنه الناصرة. هذا لا يُلغي، بالمقابل، أنْ يكون يسوع تعلّم القراءة وفكّ الحرف، كما سبق وبيّنّا ذلك في مكان آخر.

ينقل لنا فيلون ويوسيفوس أنّ الولد، في العائلة اليهوديّة، كان يتلقّى أوّل علومه في البيت الوالديّ من أبويه، ومن معلّمين خاصّين ما إن يبلغ درجة كافية من الوعي. لا شكّ في أنّ مريم ويوسف لقّنا يسوع أن يتمتم الصلوات الأساسيّة التي كان المؤمن يتلوها مرّات عديدة في اليوم الواحد.

ومن كثرة تردادها في البيت، تعلّم يسوع، مثلاً: تلاوة صلاة "إسمع يا إسرائيل" (تث ٦:٤–١٠). على كلّ حال، كيف يمكن ليسوع ألاّ يُتقن تلاوة هذه الصلاة، وهو يراها كلّ يوم مكتوبة على عتبة البيت كما توصي بذلك الشريعة (تث ٦:٩). كما تعلّم يسوع الفتى في البيت تلاوة البركات الرئيسيّة التي كانت تُقال قبل القيام بأيّ عمل. فقد كان لكلّ عمل بركة خاصّة به، حتّى يُمكننا أن نُحصي حوالي مئة بركة مُختلفة، على المؤمن أن يشكر الله من خلالها ويذكر اسمه على شفتيه(٣٥). جاء في التلمود في ما بعد أنّ "من يستعمل خيرات هذا العالم من دون تلاوة البركة، فهو يُدنّس شيئًا مُقدّسًا". مثل هذه التلاوات المتكرّرة تُدخل المؤمن في جوّ إلهيّ وفي ذكر دائم لله.

في البيت أيضًا، علّم الأبوان الطفل التعاليم التي تُعتبر عزيزةً على قلب كلّ يهوديّ، كالتمييز بين ما هو طاهر وما هو نجس من الأطعمة(٣٦)، وما يُمنع الأكل منه من اللحم المخنوق.

(٣٥) كانت هناك بركات تُتلى عند: الاستيقاظ من النوم، عند لبس الثياب، عند الأكل، عند النوم، عند غسل الأيدي، عند هطول الأمطار...، لا بل حتّى عند قضاء حاجات الإنسان الطبيعيّة.

(٣٦) إنّ فكر يسوع حول هذا الموضوع تطوّر، دون شكّ، مع مرور الأيام. لكن هذا لا يُلغي مُحافظته على هذه الفريضة. يُقدّم العلماء، كبرهان على هذا، مثل بطرس في أعمال الرسل، الذي رفض، بادئ الأمر، أن يأكل أطعمة تُعتبر نجسة في الدين اليهوديّ. ومن المعلوم أنّ بطرس آكل يسوع وشاركه الطعام، أقلّه مدّة ثلاث سنوات.

وعندما بلغ يسوع عامه الثالث، ألبسه أبواه الرداء ذا الأهداب الأربعة، وذلك حسبما توصي الشريعة في سفر تثنية الاشتراع (٢٢:١٢).

وكان يوسف ومريم يصطحبانه إلى مكان الصّلاة[٣٧] في القرية، ثلاث مرّات على الأقلّ في الأسبوع الواحد: أيّام الاثنين والخميس والسّبت، ما عدا أيّام الأعياد حيث تكثر الاحتفالات الليتورجيّة. كان يسوع الطفل، قبل تعلّمه العبريّة، يكتفي دون شكّ بالإصغاء وبرؤية ما كان يجري حوله من رموز وحركات. كان يكفيه أن يُجيب مع الجماعة بـ"آمين"، حالما ينتهي المُحتفل أو القارئ من تلاوة الصّلاة. كان التلمود يعتبر "أنّ الولد يُحرز نصيبًا من الخلاص الآتي ما إن يبدأ بقول "آمين".

في أيّام الأعياد الكُبرى كانت العائلة تتهيّأ للاحتفال الليتورجيّ في البيت، قبل أن تتوجّه إلى مكان الاجتماع العامّ، وذلك بتلاوة بعض المزامير المناسبة، مثل: "ما أحبّ مساكنك يا رب القوّات..." (مز ٨٤).

ومن الاحتفالات التي من المحتمل أن يكون يسوع قد شارك في إحيائها، حدّد روبير آرون اثنين[٣٨]:

١– كانت التوراة، في زمن يسوع، مقسّمة، ربّما، إلى حوالي مئة وخمس وسبعين مقطعًا (فَرَشه)، تُقرأ في المجمع على مدار ثلاث سنوات ونصف السّنة. وفي ختام كلّ دورة، وعند قراءة آخر مقطع من التوراة الذي يروي موت موسى، كانت تُعاد قراءتها مُجدّدًا من أوّلها، أيّ من الفصل الأوّل من سفر التكوين. وعند الإعادة، كان يُقام احتفالٌ طقسيّ، يكون أبطاله أطفال القرية، الذين كانوا

(٣٧) لم نقل "المجمع"، لأنّ عددًا لا بأس به من العلماء ينفي وجود مجامع في القُرى الصغيرة، كالناصرة زمن يسوع. ويُقلّلون عدد المجامع في كلّ الجليل آنذاك بنحو أربعة فقط، من بينها الذي في كفرناحوم وآخر في الجولان.

(٣٨) راجع: R. ARON, *Les années obscures de Jésus*, p. 82 et 85. إلاّ معاصرة هذين الطّقسين لزمن يسوع، وبالتالي احتمال مُشاركة يسوع فيهما، هي غير مؤكّدة تاريخيًّا، وبحاجة إلى دراسة معمّقة على حدة. على كلّ حال، أثبتناهما هنا من باب التخمين وعلى ذمّة الكاتب الذي أورد هما.

يطوفون بابتهاج داخل المجمع، حاملين بأيديهم لفائف الشريعة، وذلك للدلالة على حيويّة كلمة الله وعلى شبابها الدائم. قد يكون يسوع اشترك مرّتين في هذا الاحتفال قبل بلوغه سنّ الرشد الدينيّ في الثانية عشرة من عمره.

٢– أثناء عيد الفوريم (في شهر آذار)، وفيه يتذكّر اليهود كيف تخلّصوا بفضل أستير وموردخاي من هامان الذي كان يسعى لإبادتهم عن وجه الأرض، كان الأولاد، أثناء قراءة القصّة من سفر أستير، يتململون ويتمتمون مُعبّرين عبر أصواتٍ مُزعجة يُصدرونها عن رفضهم لموردخاي المُبيد، مُصحبين هذا بحركة من أقدامهم وكأنّهم يدوسون موردخاي بها. قد يكون يسوع الطفل، شأنه شأن سائر الأطفال، قد شارك في هذا الطّقس المُعبِّر.

في باقي الأيّام العاديّة، من المؤكّد أنّ عائلة يسوع كانت تجتمع للصلاة في أوقاتها اليوميّة الثلاثة: في المساء عند الغروب، وفي الصباح عند السحر، وبعد الظهر. هكذا يتربّى الولد في زمنٍ يطغى عليه الطابع المُقدّس والإلهيّ.

٢– في السنة الثانية عشرة: "ولمّا بلغ اثنتي عشرة سنة" (لو ٢: ٤٢)

تشكّل السنة الثانية عشرة من عمر الولد اليهوديّ سنة البلوغ الدينيّ. فابتداءً من هذه السّنة يُمكن للولد أن يقف في وسط الجماعة المُصلّية، ويقرأ الشريعة على مسمع الجميع. لقد صار "ابن الفريضة". وكما عند باقي الأولاد، كانت هذه السنة مفصليّة في حياة يسوع. لذلك خصّص لوقا لها خبر زيارة يسوع إلى أورشليم، وهو الخبر الوحيد الذي لدينا عن سنوات يسوع الخفيّة. تكلّمنا سابقًا عن هذا النصّ وعن مكانته اللاهوتيّة في استراتيجيّة إنجيل لوقا. يُهمّنا هنا التشديد على وقع هذه الزيارة على يسوع، وقد تكون الأولى له إلى أورشليم.

كانت أورشليم قبلةَ كلّ يهوديّ، وزيارة هيكلها مُنيةَ كلّ مؤمن. عندما زار يسوع الهيكل في عامه الثاني عشر، كان الهيكل لا يزال في طور البناء والتزيين، ذلك أنّ هيرودس قد بدأ ببنائه حوالي سنة ١٩ ق.م.، ولم ينتهِ من العمل فيه إلاّ

بعد ستّ وأربعين سنة (يو ٢: ٢٠). لقد هاله بالطبع منظران ولّدا فيه شعورًا بالانذهال والغمّ في آنٍ معًا[٣٩]:

أوّلاً، انذهل يسوع لمنظر الهيكل: عظمة هندسته، وضخامة حجارته، وروعة زينته. كما لفتت انتباهه كثرة الحجّاج في الأعياد. وممّا يترك،عادة، أثرًا في نفس الطفل الزائر، هو الطقوس والاحتفالات الجميلة، مع رائحة البخور العابقة ولباس الكهنة المزركش.

ثانيًا، قد يكون يسوع اغتمّ، منذ صغره، لرؤيته التجاوزات التي كانت تحصل من قِبل البائعين والصيارفة المُتجمهرين عند أبواب الهيكل، والمتربّصين لاستغلال الحجّاج الآتين من بعيد. لا شكّ في أنّ هذه التجاوزات كانت تُحزن يسوع كثيرًا كلّ مرّة كان يزور فيها المدينة المقدّسة طوال سنواته الخفيّة، وكان ينتظر الوقت المُلائم ليتصرّف وليقوم بعملٍ جريء، فيطردهم من هناك ويقلب موائدهم. وهذا بالضبط ما فعله ما إن زار أورشليم للمرّة الأولى أثناء حياته العلنيّة[٤٠].

وفي أورشليم أيضًا رأى يسوع مناظر لم يعتدْ رؤيتها كثيرًا في الجليل، وهي رؤية الجنود الرومان بكثرة. فقد كانوا يومها يُسيطرون على المدينة المُقدّسة ويُحكمون قبضتهم عليها، لاسيّما في زمن الأعياد، عندما تكثر الجماهير ويزداد الحماس الدينيّ وينمو الشعور الوطنيّ في قلب كلّ يهوديّ، ممّا يفسح المجال لقيام قلاقل وثورات تُنذّد بالاحتلال الرومانيّ وبضرورة تطهير الأرض من رجاسته. لهذا كان الرومان يُفتّشون الحجّاج جيّدًا عندما كانوا يدخلون إلى الهيكل، ويُكثرون من مراقبتهم من على قلعة أنطونيا، مركزهم الاستراتيجيّ الذي كان يُحاذي تمامًا الهيكل ويُشرف على باحته. هذا كلّه احتكّ به يسوع

(٣٩) راجع: R. ARON, *Les années obscures de Jésus*, p. 109-127 et 181-205

(٤٠) حسب رواية يوحنّا، طرد يسوع الباعة في زيارته الأولى لأورشليم في السّنة الأولى من تبشيره (يو ٢: ١٣-٢٢).

الطفل، وسمع يومها، بالتأكيد، تململ مواطنيه وانزعاجهم من تصرُّفات الاحتلال الرومانيّ.

٣- بعد الثانية عشرة: "وشهد يوحنّا قائلاً...: أنا لم أكن أعرفه" (يو ١: ٣٣)

يصمت الإنجيل صمتًا تامًّا عن الفترة التي تلت زيارة يسوع إلى أورشليم وسبقت ظهوره العلني لإسرائيل. "هنا، يقول روبير آرون، يتحيّر المؤرّخ ويظهر السرّ (...). هنا تتحضّر (...) واحدة من التغييرات الأساسيّة التي أصابت الفكر الإنسانيّ وتاريخ الله على الأرض"(٤١). إنّه لمن الغباء والسذاجة بمكان أن نلهث وراء معرفة تفاصيل هذه المرحلة من حياة يسوع.

أ- يسوع وتراثه اليهوديّ

في هذه المرحلة، وقد بلغ فيها يسوع عمر البلوغ والوعي التامّ، اطّلع على ما تختزنه اليهوديّة من تراث دينيّ غنيّ، وعلى ما يكتنزه التقليد الشفهيّ آنذاك، من كنوزٍ روحيّة وأدبيّة.

تعرّف يسوع بالطّبع إلى **حزب الفرّيسيّين**، والتقى العديد منهم في المجامع وفي أورشليم، وكانت له مع البعض منهم أحاديث ومُجادلات عديدة. ولنا في الأناجيل بالذّات دلائل كثيرة على ذلك:

- في تبشيره، كانت المجامع، أو ما شابهها، المكان المُميّز الذي كان يجد فيه يسوع المجال الأفضل لإلقاء تعليمه على الناس. وهذا يدلّ على تعوّده على ارتيادها منذ زمنٍ طويل.
- بالرُّغم من تصادمه أحيانًا مع بعض الفرّيسيّين المُتشدّدين، كان ليسوع صداقات متينة مع بعضهم، وصلت إلى حدّ مُشاركته إيّاهم الطعام

(٤١) R. ARON, *Les années obscures de Jésus*, p. 209

والمائدة مرّاتٍ عدّة (لو ٧: ٣٦؛ ١١: ٣٧؛ ١٤: ١)، وإلى تحذيرهم إيّاه من تهديد هيرودوس بقتله (لو ١٣: ٣١)(٤٢).

– بعضٌ من تعاليم يسوع وأقواله تتشابه، بل هي مستوحاة من تعاليمهم وأقوال كبار رجالاتهم. ممّا يدلّ على اطّلاع يسوع على فكرهم الغنيّ.

ومن المعلّمين المشهورين آنذاك، المعلّم هيلّل (+ ١٠ ب.م.)، الذي سبق بقليل زمن يسوع وترك أثرًا بالغًا في تاريخ الفكر اليهوديّ. عُرف هذا الرابّي بتيّاره المُعتدل، الرؤوف والليّن، مقابل تيّارٍ آخر، مُعاصر له أيضًا، أكثر تشدّدًا وصرامةً هو تيّار المعلّم شمّاي. كثيرٌ من أقوال الأوّل نجد لها صدىً في الأناجيل. وهذه بعضها:

– يقول هيلّل: "لا تدنْ قريبك إن لم تضع قبلاً ذاتك مكانه" (= مت ٧: ١–٢).

– ويقول أيضًا لوثنيّ جاءه مُتمنّيًا الانخراط في الدين اليهوديّ: "ما لا تُحبّ أن يفعله الناس بك، لا تفعله أيضًا بالآخر. الناموس كلُّه يُختصر في هذا، والباقي ما هو إلاّ تفسير. إذهب، وتعلّم هذا" (= مت ٧: ١٢).

– إطّلع يسوع على القاعدتَين الأولَيين من القواعد السبع التي وضعها هيلّل لتفسير التوراة، واستعملها في ما بعد في جداله مع أخصامه: الأولى، تسمّى "كم بالأحرى" (a fortiori)(٤٣)؛ والثانية، تدعى "المقارنة" (analogie)(٤٤).

---

(٤٢) اللهجة الشديدة التي يتّصف بها كلام يسوع في الإنجيل عن الفرّيسيّين، يمكن فهمها، في بعض جوانبها، في الإطار الكنسيّ اللاحق الذي ولدت فيه هذه النصوص. الفرّيسيّون أنفسهم ميّزوا، في التلمود، بين الفرّيسيّين الصلاّح والفرّيسيّين الفاسدين الذين يتجلببون بمظاهر التقوى حتى يلقوا التقدير والاحترام من الناس، وميّزوا فيهم سبع فئات: ستّ فاسدون، وفئة واحدة صالحة. نقلاً عن:

R. ARON, *Les années obscures de Jésus*, p. 137-138

(٤٣) راجع مثلاً: مت ٦: ٣٠؛ ٧: ١١؛ لو ١٢: ٢٨؛ ١٠: ٣٤–٣٦.

(٤٤) راجع مثلاً: مت ١٢: ١- ٤.

واطّلع يسوع أيضًا على طرق التعليم الأخرى التي كان يتّبعها الربّانيّون في زمانه، وأشهرها اثنان: الهلكاه والهجّداه. كانت حصص التعليم تُعطى بحسب هاتَين الطريقتين. كانت الهلكاه ذات طابع قانونيّ، جافّ وصارم، تُصبّ فيها التعاليم ذات الطابع الإرشاديّ المباشر. ولكي تترطّب الأجواء، ومنعًا لأيّ ملل عند السامعين أو طيش عند التلاميذ، يلجأ المعلّمون إلى أسلوب الهجّداه، وهي عبارة عن سردٍ ممتع لقصص وأمثال هدفها شرح كلمة الله بطريقةٍ سهلة ومُعبّرة(٤٥). في الأناجيل نجد يسوع يستعمل هذَين الأسلوبَين، فينتقل من الواحد إلى الآخر بطريقةٍ سلسة. إن دلّ هذا على شيء، فعلى انغماس يسوع في أجواء العالم الدينيّ اليهوديّ.

بالرّغم من هذا التأثّر الواضح بمحيطه اليهوديّ، تبقى فرادة يسوع بعيدةً عن كلّ شكّ ويقينيّة تمام اليقين. روبير آرون نفسه، الذي جهد في كلّ صفحةٍ من صفحات كتابه في تقريب يسوع من اليهوديّة وإبراز ملامحه الساميّة، اعترف في الختام بفرادة يسوع التي تُميّزه عمّن سبقه من مُعلّمين، وتميّز تعليمه عمّا قيل قبله من قِبَل الربّانيّين اليهود. يقول آرون: "الحقّ أقول لكم... بهذه الكلمات البسيطة كسر يسوع التقليد الفرّيسيّ. هذا تجديدٌ خاصّ به وجريء، لدرجة أنّ يسوع، الذي تكلّم غالبًا في المجامع، لم يستشهد بهذا أو بذاك من التلموديّين، بل أخذ على عاتقه كلّ كلمةٍ قالها ونسب لنفسه التفكير الذي يكون قد استوحاه من بعض المُعلّمين الذين سبقوه. إنّها حقًّا لفضيحة بالنسبة للفرّيسيّين الحاضرين: أن ينسب يسوع لنفسه دورًا، وأن يُبادر، وأن يستقلّ بفكره بنحوٍ لم يجرؤ موسى نفسه على أن يفعل مثله. كان يسوع يتكلّم باسم الله، من دون المرور بالتقليد، وكأنّ بينه وبين الله عهدًا خاصًّا. عهدٌ خاصّ، كلمتان لا يُمكنهما، بالنسبة ليهوديٍّ تقليديّ، إلاّ أنّ يتناقضا"(٤٦).

(٤٥) قال أحد الربّانيّين في الهجّداه إنّها "التحلية" التي تلي وجبة الطعام.

(٤٦) R. ARON, *Les années obscures de Jésus*, p. 222-223

ب- من البحر الميت... إلى الهند

قلنا سابقًا إنّ الأناجيل لم تقل شيئًا عن الفترة التي تلت زيارة يسوع إلى أورشليم، أثناء عامه الثاني عشر، والتي سبقت ظهوره العلنيّ لإسرائيل. هذا التعتيم دفع بعض العلماء إلى بناء النظريّات، الواحدة تلوَ الأخرى، والواحدة المُناقضة للأخرى، حول ما يُمكن أن يكون يسوع عمله خلال هذه السنوات، ومع أيّة جماعات يُمكنه أن يكون اتّصل، أو إلى أيّ بلدٍ يُمكنه أن يكون سافر. سنعرض هنا سريعًا بعض هذه النظريّات ونقول فيها كلمة:

يسوع والأسينيّون

يقول قومٌ إنّه كانت ليسوع علاقات واتّصالات بجماعة الأسينيّين النُسكيّة، التي كان مركزها في الصّحراء على ضفاف البحر الميّت. وذهب البعض إلى القول إنّ يسوع دخل ديرهم وانخرط في صفوفهم فترةً من الزمن وتلقّى منهم بعض تعاليمه. حُجّتهم في ذلك هي التقارب في بعض المفاهيم، لا بل الألفاظ، التي يحويها خصوصًا إنجيل يوحنّا[٤٧]. من المعلوم تاريخيًّا أنّ الأسينيّين كانوا فئتين: الأولى، وهم الجماعة الديريّة، وهي مؤلّفة من أفراد نذروا البتوليّة ويعيشون ضمن جماعةٍ "رهبانيّة" بالقرب من البحر الميّت؛ والثانية، تتألّف من أفرادٍ يعيشون في العالم خارج الحصن الديريّ، مع إمكانيّة الزواج، ويتّبعون قواعد تُعتبر مُخفّفة بالنسبة إلى قواعد الجماعة الديريّة. لا يمنع أن يكون يسوع قد التقى يومًا بتجواله وترحاله أشخاصًا ينتمون إلى الفئة الثانية من الأسينيّين، ومنهم اطّلع على بعض تعاليمهم. لكن أن يكون قد انتمى إلى الجماعة الديريّة، فهذا أمرٌ مُستبعَد جدًّا، بحُكم الاختلافات الجوهريّة بين توجّه يسوع التبشيريّ والعلائقيّ مع المجتمع، وبين توجّه الأسينيّين التوحُّديّ والانزوائيّ.

(٤٧) مفاهيم مثل: التضادّ بين النور والظلمة، معلّم البرّ، الماء الحيّ...

نستغلّ الظرف هنا لنؤكّد، مع التقليد، بتوليّة يسوع وعدم ارتباطه بأيّ زواج. صحيح أنّ البتوليّة كانت حالةً غريبة ولا يُحبّذها المجتمع اليهوديّ آنذاك، غير أنّ حالة يسوع لم تكن فريدة. نحن نعرف رجالاً عديدين في الكتاب المقدّس عاشوا من دون زواج، وكرّسوا حياتهم لرسالةٍ ربّانيّة تلقّوها من علو: إرميا في القرن السابع، ويوحنّا المعمدان، وجماعة قُمران الديريّة...

يسوع ويوحنّا المعمدان

هل كان يسوع واحدًا من "تلاميذ" يوحنّا المعمدان؟ سؤال أساسيّ يطرحه العلماء اليوم ويتباحثون حوله. عندما نقرأ الأناجيل الإزائيّة لا يخطر على بالنا حتّى طرح هذا السؤال. لكن عند قراءتنا النصوص اليوحنّاويّة حول هذا الموضوع، ١:٢٩–٤٢ وخصوصًا يو ٣:٢٥–٣٦، يساورنا احتمال التصاق يسوع بيوحنّا مدّة من الزمن، لكن غير طويلة. وقد يكون قد شاركه أيضًا رسالة تعميد الناس: "لا نزال نجد صعوبة في فهم ما كان عليه الأمر حقيقة (...)، لكنّ النصّ يوحي لنا بأنّ يسوع كان يتصرّف كمشارك أو كمساعد ليوحنّا، إذ كانا يتقاسمان العمل (...). لا يمكننا أن نبعد عنّا ذلك الانطباع الذي يعطينا إيّاه التقليد المرتبط بيوحنّا، والذي يقول إنّ يسوع أمضى بعض الوقت برفقة المعمدان. لا شيء يدلّ على أنّ هذه الإقامة دامت طويلاً، ولا أيضًا إذا كان يوحنّا المعمدان معلّم يسوع، بالمعنى القويّ لكلمة **معلّم**"(٤٨).

هذه الفرضيّة "غير الرعويّة"، تقابلها أخرى من العيار ذاته، أخذت تتسلّل: هي أيضًا، إلى عقول البحّاثة، وهي الشكّ بالمعلومة اللّوقاويّة عن قرابة يسوع ليوحنّا من جانب أمّه مريم ("ها إنّ نسيبتكِ أليصابات"، لو ١:٣٦)، والسبب هو تعارضها مع ما جاء في إنجيل يوحنّا: "أنا لم أكن أعرفه" (يو ١:٣٣). وأيضًا بسبب نفحة هذه القرابة اللاهوتيّة، ودورها الأدبيّ في تأليف الفصلَين ١–٢ من إنجيل

(٤٨) J. SCHLOSSER, *Jésus de Nazareth*, p. 100-102

لوقا: القرابة بين العائلتين تحضّر لزيارة مريم لأليصابات، هذه الزيارة التي تشكّل نقطة الالتقاء الوحيدة لدورَي يسوع ويوحنّا في الفصلَين الأوّلين من لوقا(٤٩).

من المؤكّد أنّ هاتين الفرضيّتين لا تزالان قيد الدرس والتمحيص التاريخيّ، ولا يتيح لنا مجال بحثنا هذا الضيّق أن نتوسّع في نقدهما.

يسوع وأسفاره المزعومة إلى الهند ومصر وفينيقيا

هناك تقليدٌ يؤكّده الأقباط ويصرّون عليه أيّما إصرار، وهو أنّ يسوع زار مصر أثناء سنيه الثلاثين الخفيّة، غير زيارته إيّاها مع أهله عندما التجأوا إليها خوفًا من اضطهاد هيرودس (مت ٢:١٣-١٥). لا شيء يمنع أن تكون هذه الزيارة قد حصلت فعلاً أثناء تلك الفترة من حياة يسوع، وذلك لقرب مصر من فلسطين، ولوجود علاقات تاريخيّة بينهما. ولكن لا شيء أيضًا يؤكّد هذه الزيارة.

الشيء نفسه يُقال في الفرضيّة التي تزعم زيارة يسوع لفينيقيا في شمال فلسطين. لا شيء يمنع حصولها تاريخيًّا، كما لا شيء يؤكّدها.

أمّا زيارة يسوع للهند ولقائه برهبان بوذيّين استقى منهم بعضًا من تعاليمه، فهذا أمرٌ مُستبعد جدًّا، بل ضربٌ من الخيال، ليس لأنّه لا شيء في التقليد يؤكّد ذلك فحسب، بل أيضًا لعدم ذكر التاريخ لأيّ تواصل بين الهند وفلسطين. الإسكندر الكبير بكلّ عظمته وصل إلى حدود الهند ولم يفتحها. علاوةً على ذلك، نجد في النصوص الإنجيليّة نفسها إشارةً تستبعد ذهاب يسوع إلى خارج حدود إسرائيل لطلب العلم. أبناء بلدته الناصرة، الذين من المفروض أن يكونوا أكثر الناس معرفةً به، قالوا يومًا فيه متعجّبين: "من أين له هذه الحكمة وتلك المعجزات؟ أليس هذا ابن النجّار... فمن أين له كلّ هذا؟" (مت ١٣:٥٤-٥٥).

(٤٩) J. SCHLOSSER, *Jésus de Nazareth*, p. 97

على كلّ حال، من أطلق هذه النظريّة انطلق من مقارنة قام بها حديثًا بين المسيحيّة والبوذيّة، ورأى بينهما أمورًا مُتشابهة، فزعم أنّ يسوع زار الهند وتعلّم على يد رُهبان بوذيّين!! نصدّق جيّدًا المطران جورج خضر عندما قال مرّةً: "إنّ البُنية العقليّة الأساسيّة في العهد الجديد، بما في ذلك يوحنّا، لا علاقة لها بالإغريق. ومن باب أولى ليس ليسوع الناصريّ علاقة بالهند من قريب أو بعيد. المضمون الإنجيليّ والنفحات والرؤية بكاملها تُناقض الهندوقيّة مُناقضةً كاملة. لستُ أرى تحدُّرًا للمسيح إلاّ من ابراهيم"(٥٠).

خاتمة

في الختام، نقول إنّ مقاربتنا لموضوع السنوات الخفيّة التي قضاها يسوع في الظلّ، وُلدت من تساؤلات سمعناها هنا وهناك من الناس، الذين يتشكّك بعضهم من صمت الإنجيل عن هذه السنوات. في الواقع، سكت الإنجيل عنها لأنّ التقليد الرسوليّ الأوّل لم يهتمّ بتقصّي أخبار هذه المرحلة من حياة "الربّ". على كلّ حال، أن تكتب سيرةَ إنسان، في القديم، كان يعني أن تبرهن (démontrer) وليس أن توثّق (documenter)، وأن تفسّر (interpréter) وليس فقط أن تدوّن أخبارًا (chroniquer). من هنا كان اللجوء، في هذه العجالة، إلى كثير من الاستنتاج وإلى قليل من المخيّلة، لكن دائمًا استنادًا إلى حجّة وبرهان.

وقد يصل المؤرّخ، في دراسته لهذه الحقبة من سيرة يسوع، إلى نتائج قد لا تتوافق مع معطيات تعتبر عادةً أساسيّة في الإيمان. لذلك أرى أنّه إذا أراد أحدٌ أن يدخل إلى حقل يسوع التاريخيّ بأحذية الإيمان فقط، فلا بدّ له من أن يلاقي في دربه ألغامًا يصعب عليه تجاوزها. عليه مسبقًا أن يقبل بأيّة مقاربة تاريخيّة ليسوع ويتصالح معها. وبالمقابل، أن يكتفي الدارس بالتاريخ، فهذا قد يوصله إلى العبثيّة والفراغ. لذا على كلام بولس الرسول أن يبقى حاضرًا دائمًا في ذهنه: **"إذا كنّا قد عرفنا المسيح يومًا معرفة بشريّة، فلسنا نعرفه الآن هذه المعرفة"** (٢كو ٥: ١٦).

(٥٠) جورج خضر، "أحد النسبة"، النهار، ١٨ كانون الأوّل ١٩٦٩.